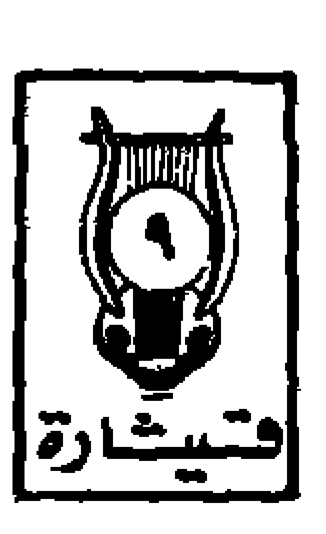


روايات الجيل الرومانسية
انتقام امرأة
٩
قيثارة
تأليف
مجدي صابر



روايات الجيل الرومانسيّة ٩

انتقام امرأة

تأليف
مجدي صابر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

« إمرأة.. ووحش »

الوقت يقترب من الثالثة ظهراً والزحام على أشده في مدخل حي « شبرا » .. وسائقو السيارات المتراصة قد ضاق صبرهم فشرعوا يطلقون نفيرها في احتجاج وغضب.

لمعت ابتسامة على وجه مراد داخل سيارته الأنيقة الصغيرة الفاخرة .. أشعل سيجارة ونفث دخانها في تلذذ وصبر .. بالرغم من أنه كان مستعجلاً إلا أن الزحام والحر لم يضايقاه.

كان ينسى أي مضايقة عندما يحتويه ذلك المكان في حي « شبرا » العريق. فله في هذا المكان ذكريات سعيدة هانئة، وأخرى مريرة قاسية. ولكنه مهما ذهب به الترحال وطافت به قدماه إلى أقصى بقاع العالم وأكثرها جاذبية وسحرا. فإنه دائماً يحن للعودة إلى « شبرا » .. وربما

لأجل ذلك وبعد أن سكن في حي « جاردن سيتي » الارستقراطي في فيلا فاخرة، فقد رفض أن يبيع شقة « شبرا » المتواضعة واحتفظ بها ليقضي فيها بعض الأوقات القليلة كل فترة، حتى لا يشعر أنه اقتلع نفسه من جذوره.

وابتسم ابتسامة واسعة رائعة.

حتى حبه الأول كان لفتاة من « شبرا ».. ابنة الجيران.. حب المراهقة الأول الذي لم يعقبه حب آخر بعد.

وتساءل ضاحكا : ترى كيف صار حال « صفاء » الآن بعد عشرين عاما .. هل تغيرت عما كانت عليه وهي في الثالثة عشرة من عمرها بضفيرتيها الطويلتين ووجهها المستدير كتفاحة شاحبة لم تنضج بعد .. هل تزوجت .. هل أكملت تعليمها .. هل صار لديها أطفال .. كان يكبرها بعامين .. وكانت زوجة أبيه له بالمرصاد .. حتى في حبه البريء وطهارة مشاعره.

وتنهد والإشارة تسمح له بالمرور البطيء.

انطلق في شارع « الترعة البولاقية » وانحرف يساراً في شارع « شيكولاني » .. ظهرت أمامه مدرسة التوفيقية التي

أمضى بها دراسته الثانوية .. لو كان قد حصل على مجموع عال في الثانوية لربما صار طبيبا أو مهندسا .. ولربما تغير مسار حياته تماما.

ولكن لا دراسة الطب ولا الهندسة كانا سيأتيان له بالملايين .. والعديد من الشركات التي صار يمتلكها الآن.

لا يحقق الانسان في هذا العالم كل ما يتمناه. ومهما حقق الكثير، تظل هناك آمال صغيرة مؤلمة يستحيل تحقيقها بأي حال من الأحوال.

أوقف السيارة أمام مدرسة التوفيقية .. كان المكان الذي يقصده على بعد خطوات قليلة .. صديق زمالة قديم مريض كان لا بد من زيارته .. برغم اختلاف المسافة في الزمان والمكان الذي صار يفصل الاثنين في تلك اللحظة.

مد يده يلتقط علبة الشكولاته الأنيقة فوق المقعد المجاور .. وقبل أن يغلق أبواب سيارته سمع الضجة التي انبعثت من ركن قريب.

ضجة ممتزجة بصراخ وعويل يبعث الرجفة في الأوصال.. صوت امرأة تصرخ وتستغيث وتتألم.. وزعيق لاهث

لرجل بدا صوته كزئير وحش في حالة جنون مطبق.

التفت بسرعة .. وصدمه المنظر الدامي أمامه.

امرأة رقيقة التكوين هزيلة البدن في ملابس سوداء .. شعرها الأسود الفاحم يثور على وجهها، وملابسها ممزقة فوق كتفيها وذراعيها، ووجهها دامي مليء بالخدوش والدماء، ورجل ضخم التكوين غزير الشعر بوجه يقترب من ملامح قرد وحشي قد راح ينهال بكلتا يديه ضرباً فوق المرأة الرقيقة التكوين، وهو يجذب شعرها في قسوة هائلة فينتزع خصلات منه. وتصرخ المرأة مستنجدة، فتجاوبها قبضة الوحش في وجهها لتفجر مزيداً من الدماء وتبتر استنجادها. والمارة من الخلف والأمام قد وقفوا مشدوهين مذعورين، لا يجرؤ أحدهم على الاقتراب، أو منع ذلك الوحش الآدمي مما يفعله، فبدوا في وقفتهم مثل دمى متحركة قد أصابها شلل فجعلها أقرب إلى تماثيل مذعورة الملامح في حالة موت كامل.

سقطت المرأة على الأرض غارقة في دمائها فواصل الوحش الآدمي ضربه لها بقدميه فوق جسدها النحيل

صارخاً : سوف أقتلك .. أقسم أن أقتلك ولن ينقذك مني أحد.

ارتعد مراد وأحس بشلل يتملكه للحظة خاطفة، ثم تصاعدت دماء ملتهبة إلى رأسه، فوارة حادة كنهر من الحمم المشتعلة. وفي الحال عاودته ذكرى قديمة حادة مؤلمة كطعنة سكين .. هاجمته بغتة وكادت تدفعه للبكاء. ذكرى جراح ماضية وآلام ظن أنها اندملت في قلبه منذ سنوات وكساها النسيان برداء الأيام.

وها هو المشهد الوحشي أمامه يعيد العبث بجراح من الماضي ظن أنها اندملت إلى الأبد ..

وصاح في غضب هائل : أيها الوحش .. دعها أيها المجرم.

واندفع بلا تروٍ نحو ذلك الوحش الآدمي، وتنبه له بعض الواقفين على الفور، وأشفقوا عليه من المصير الذي ينتظره، فلم يكن هناك تناسب في الحجم على الإطلاق بين الاثنين.

كان مراد وسيماً أنيقاً.. متوسط الطول ناحل الشعر..

وكانت ضربة واحدة من ذراع الوحش الآدمي كفيلة بأن تحطم له صدره أو تهشم له عنقه.

وقف مراد أمام غريمه.. وكانت ذراع الوحش الآدمي تستعد لتهوي فوق وجه ضحيته المسكينة لتشج رأسها.

فجأة توقفت الذراع الكثيفة الشعر في الهواء .. أوقفتها ذراع مراد التي بدت أنها تحتوي قوة هائلة غير مرئية أوقفت اندفاع تلك الذراع التي تشبه مطرقة لا حدود لقوتها. لمعت الدهشة في عيني الوحش الآدمي .. التفت إلى مراد غير مصدق .. غمغم في غضب وحشي : أيها الغبي كيف تجرؤ .. سوف أحطم لك عنقك جزاء تدخلك. وطارت قبضة الذراع الثانية كأنها قنبلة نحو وجه مراد .. ولكنه وببساطة عجيبة تحاشاها، وبنفس السرعة كانت قدمه تأخذ طريقها إلى بطن غريمه في ضربة مؤلمة تقوّس لها .. عاجلته ضربة أخرى قوية مفاجئة بسيف يد حادة فوق العنق الغليظ، جعلت عيني الوحش الآدمي تجحظان، وفيهما من الألم أكثر مما فيهما من الدهشة. وأمسك مراد بياقة غريمه، وبحركة جودو بارعة رفع الوحش الآدمي فوق قدمه ثم ألقاه إلى الخلف، فسقط الأخير على الأرض الصلبة

وارتطمت رأسه بها فشجت جبهته وامتلأت بالدماء.

وزأر الوحش الآدمي في غضب هائل .. وقفز واقفا وهو يستعد لخوض معركته الأخيرة .. ولكن ضربة من قدم مراد بين ساقي غريمه جعلته يسقط على الأرض وهو يصرخ ويئن من الألم الحاد لدرجة البكاء ..

وأمسك مراد بياقة غريمه الباكي وهتف به : هذا يجعلك تفكر ألف مرة بعد ذلك أيها المجرم عندما تريد إيذاء امرأة مسكينة.

وتركه يهوى على الأرض، ثم التفت إلى الواقفين وصاح بهم: ليستدع أحدكم رجال الشرطة ليقبضوا على هذا المجرم.

أفاق الواقفون من ذهولهم وبدوا كأنما دبت فيهم الحياة مرة أخرى .. كانوا لا يصدقون ما جرى أمام عيونهم منذ لحظة واحدة، وكيف تغلب ذلك الشاب الوسيم الأنيق القليل الحجم على ذلك الوحش الآدمي الهائل الحجم كغوريللا متوحشة.

صاح أحدهم : سأذهب لآتي بأحد رجال الشرطة.

ولكن صوتاً أشبه بالأنين إنبعث من المرأة الناحلة القوام المليئة بالخدوش والجروح قائلة في وهن : لا .. أرجوكم .. لا تستدعوا الشرطة.

تأملها مراد في دهشة .. كانت أكثر رقة مما ظن .. وكان جلبابها الأسود الواسع يخفي ضآلة حجمها .. وشعرها الأسود الفاحم قد اختلط بدماء وجهها .. والتصق بجبهتها، كأنه شاهد حزين على ما صارت إليه حال الشهامة في ذلك الزمان.

في دهشة هتف مراد بها : يجب إحضار رجال الشرطة لهذا المجرم للقبض عليه بسبب إيذائه لك و ..

ولكنها قاطعته بصوت متوسل أقرب إلى البكاء : أرجوك .. دعه يذهب .. ولا تأت بالشرطة.

ألقى مراد بنظرة دهشة على المرأة ثم التفت إلى غريمه في حدة كأنه يبحث عن سر إصرار المرأة الجريحة على عدم استدعاء الشرطة لذلك الوحش بعد كل ما نالها من أذى على يديه.

استطاع الوحش الآدمي أن ينهض على قدميه وقد احتقن

وجهه بغضب كريه .. وراح يلهث بصوت كزئير وحش بدائي .. وفي خطوات متعرجة خطا مبتعداً بعد أن ألقى على مراد نظرة حقد قاتلة..

أدرك مراد أن هناك سرا قد يجهله في طبيعة العلاقة بين ذلك الرجل وتلك المرأة. تغلب على دهشته .. وهمس يقول لها : هل آتي لك بسيارة اسعاف أم أنقلك بسيارتي إلى المستشفى ؟.

اكتسى وجه المرأة الشاحب المغطى بالدماء بنظرة ذليلة وقالت : لا داعي لذلك .. ليست هي المرة الأولى .. المنزل قريب وسأذهب إليه.

وتحاملت على نفسها ونهضت مترنحة، وكادت تسقط مرة أخرى لشدة ضعفها. فأسرع مراد يمد يده فاستندت إليها شاكرة.

بدأ انصراف الواقفين.. ألقى مراد عليهم نظرة دهشة ممتزجة بالاحتقار والغضب. كانوا جميعا يبدون غرباء عنه .. ليس هؤلاء هم القوم الذين عاشرهم وأحبهم في هذا المكان لشهامتهم وأخلاقهم .. كانوا فيما مضى يضحون

بأرواحهم دفاعاً عن ضعيف .. الآن لا يخاطرون حتى بنظافة ملابسهم دفاعا عن امرأة وحيدة تكاد تُقتل على يد وحش آدمي.

همست المرأة تقول له : البيت قريب .. في الشارع التالي.

قال لها : سأصحبك إلى بيتك .. قد ينتظرك هذا المجرم في مكان قريب ليواصل انتقامه منك إذا ما تركتك الآن.

رمقته المرأة بنظرة طافحة بالمرارة مليئة بالدموع وهمست : شكرا لك .. لولاك لربما كان قد قتلني من الضرب.

أجابها كابحاً غضبه : كان يمكنني أن أؤدبه بأكثر من ذلك.. إنني بطل كاراتيه وجودو وكان يمكنني بسهولة أن أحطم له ذراعيه أو رأسه فلا يستطيع إيذاء طفل بعد الآن.

واجهته المرأة بعينين تفيضان بدموع شكر لا نهاية لها ..

في تلك اللحظة لاحظ مراد جمال عيني تلك المرأة الدقيقة التكوين.. كانت لها عينان سوداوان كأنهما قلب الليل الفاحم .. فيهما لمسة إلهية من جمال وابداع لا

مثيل لهما وسحر عجيب غامض ووجهها برغم تورمه والدماء التي تغطيه كان يوحي بجمال ورقة عجيبين.

انتزع نفسه من الدهشة وسألها : من ذلك الوحش الذي كان يضربك .. هل هو أحد أقاربك ؟.

عضت على شفتيها وقالت في ندم مرير : لقد كان زوجي .. إنه طليقي.

اكتسى وجه مراد بدهشة كبيرة. فاجأته الإجابة. لا يكاد يصدق أن مثل ذلك الوحش كان يوماً ما زوجا لتلك المرأة الدقيقة الحجم السوداء العينين كليل مليء بالأسرار.

وعندما لمحت هي النظرة المتسائلة المندهشة في عينيه اكملت قائلة : إنني أعيش مع أمي العجوز .. فأبي قد توفي منذ سنوات ولا أحد آخر لنا.

قدّر مراد من ملابسها مدى الفقر والعوز الذي يعصف بحياة تلك المرأة وقلة دخلها. أوصلها حتى منزلها، ومن داخله اندفعت فتاة في الثانية عشرة وطفلان أكبرهما في الثامنة والأصغر في الثالثة، وتعلق الطفلان بثوب المرأة الممزق وهما يبكيان، أما الفتاة الكبيرة فوقفت على مسافة

تتأمل المرأة بعينين زجاجيتين لا مشاعر فيها. قبل أن يسألها مراد بدهشة عن الأطفال الثلاثة ومن يكونون، أجابته في بساطة وهي تحتضن الطفلين الصغيرين بين ذراعيها وترنو للفتاة في حنان : إنهم أطفالي.

لم يصدق مراد لأول وهلة .. لا يبدو على تلك المرأة الناحلة القد أنها أم .. ملامحها وتكوينها لا يشيران أنها أنجبت ثلاث مرات.

هي نفسها كانت ملامحها توحي أنها في السادسة أو السابعة والعشرين، فمتى تزوجت لكي تكون لها ابنة في الثانية عشرة من عمرها ؟.

همست تدعوه للدخول قائلة : تفضل.

استعاد انتباهه .. غمغم في ارتباك : شكرا لك .. لا وقت لديّ.

امتدت يداه بلا وعي إلى حافظته .. أخرج منها كل ما كانت تحتويه من نقود .. مدها إلى المرأة ولكنها تراجعت خطوة للوراء كأن النقود نار ستحرقها، وأطلت من عينيها نظرة قاسية حادة، وقالت بصوت غاضب متنمر :

شكراً لك .. لست في حاجة إلى المال وخاصة من الغرباء.

وقبضت يداها بشدة على أطفالها الثلاثة كأنها تحتمي بهم من خطر داهم. ثم تحركت نحو مدخل منزلها ورمقت مراد بنظرة أخيرة غريبة قبل أن تغيب عن عينيه.

وأحس مراد بالفراغ بعدها فتحرك ليغادر المكان .. وعندما وصل إلى سيارته أدهشه أنه نسي أن يسأل تلك المرأة حتى عن اسمها .. كان لا يعرف سر تلك المعركة الوحشية بين تلك المرأة وبين زوجها السابق .. ولا لماذا رفضت استدعاء الشرطة له برغم وحشيته معها.

كان كل شيء يحيط بتلك المرأة الرقيقة التكوين محاطاً بالأسرار.. كلَيْل عينيها الغارقتين في بحور من الأسرار لا نهاية لها !.

« كريمة »

لم يغمض لمراد جفن تلك الليلة ...

ما حدث نهار اليوم السابق فجّر في أعماقه براكين ذكرى قديمة لأيام مريرة سابقة .. أمه والأقارب ينوحون عليها وهو في الخامسة من عمره لا يدري أسرار الموت والرحيل. وبعدها جاءت زوجة أب كانت سمينة غليظة كأنها حيوان ليست له رغبة إلا في الطعام والنوم .. ثم في إيذائه. فأدرك من أسرار الحياة وقسوتها ما كان يفيض عن طفولة أيامه وبراءة دنياه. منذ تلك اللحظة صارت حياته عبئاً ثقيلاً وآلاماً متواصلة، وصفعات وركلات زوجة أبيه تغتال طفولته وتودي بسمته. تطعن براءته بلا ذنب حتى صار أشبه بالخادم في بيت أبيه ليس له إلا الفتات. ملابسه لا تتبدل إلا بعد أن تبلى، ووالده مشغول عنه بعمله الكثير وأمراضه المزمنة.

وعندما دارت الأيام دورتها تبدلت أشياء كثيرة ..

ما عاناه في طفولته ومرارتها صنع منه كياناً صلباً لا تهزه عواصف وأنواء .. مات أبوه وماتت زوجة أبيه القاسية .. ولكن صفعاتها وركلاتها كانت لا تزال آلامها تدمي ذاكرته وتكدر أحلامه.

اعتمد على ذراعيه وعقله يواجه بهما الحياة .. والحياة دائما تمنح من يتحداها ولا يستسلم لها ..

ما حدث نهار ذلك اليوم أهاج شجونه ونكأ جراحه في عنف لا مثيل له.

إنه يدرك الآن لماذا ثار على ذلك الوحش الآدمي وانهال عليه ضربا .. ربما لأنه قد تخيله في صورة زوجة أبيه القاسية.. وتلك المرأة الرقيقة الدامية الوجه كانت تبدو كطفلة بلا إرادة أو قوة تدافع بها حتى عن نفسها .. تماما مثلما كان هو في طفولته.

أما نظرات الأطفال الثلاثة المغموسة في المرارة والاحتياج وذل الفقر .. هذه النظرات ذكرته بطفولة حزينة مريرة واحتياج أدمى كرامته صغيراً وجعله يعتاد على

الاستغناء عن ضروريات كثيرة .. حتى الطعام والشراب.

بعد يومين قاد مراد سيارته إلى نفس المكان .. والمقعد الخلفي للسيارة قد امتلأ بأكياس الهدايا للأطفال الصغار.

وفكر مراد، لقد رفضت أمهم نقوده فهل سترفض هداياه لصغارها .. قاوم كثيرا كي ينسى ما حدث ولكن نظرات الصغار كانت تؤلمه وتنهش جراحه القديمة .. وعينا أمهم السوداوان العميقتان فيهما أسرار لا نهاية لها ترفض أن تنكشف له أو تزيح ستائر غموضهما.

طرق الباب ففتحته هي. فوجئت به. تسمرت في مكانها غير مصدقة. عيناها الحلوتان كانتا تفيضان في تلك اللحظة باحساس عميق بالدهشة والحيرة، ووجهها كان لا يزال يحمل آثار الكدمات والضربات، ولكنه بدا في تلك اللحظة كأنما قد استعاد صفاءه وإشراقه .. وملامحها بعد أن تخلصت من الآلام والجراح، بدت رقيقة جميلة فاتنة، أجمل كثيرا مما ظن أو تخيل ... أهدابها السوداء طويلة كأنها سهام آلة الحب مشرعة على الدوام لتصيب منكسري القلوب، وحاجباها دقيقان فاحمان دون تجميل مثل شطآن

نهر غابة برية.. والأنف برغم رقته فيه كبرياء واعتزاز بالنفس .. والوجنتان برغم شحوبهما كانتا مستديرتين نابضتين بالحياة، في وسطهما غمازتان رائعتان أشرقتا بالسعادة عندما تكورت الوجنتان بنظرة الدهشة العميقة .. وجيدها الناصع البياض كصفحة سماء ربيعية كان يحليه عقد رخيص، بدا أثمن من الماس في تلك اللحظة.

جاء صوت عجوز واهن من الداخل متسائلاً : من الطارق يا كريمة ؟.

أدرك مراد على الفور أنه صوت الأم العجوز .. أما تلك المرأة الدقيقة التكوين فعرف اسمها أخيراً .. كريمة !

سألها في ارتباك وبعض الخجل : هل تسمحين لي بالدخول ؟.

لم ترد كريمة على الفور، كأن المفاجأة كانت أكبر من أن تستوعبها في لحظات خاطفة.

أقبل الطفلان والفتاة الصغيرة من أحد الأركان ووقفوا يحدقون في أكياس الهدايا باشتهاء وغريزتهم قد دلتهم أنها من أجلهم.

لمحت كريمة نظرة أطفالها المتوسلة إليها والطافحة بالمعاناة والاحتياج .. بذلت جهداً مضاعفاً لتمنع نفسها من البكاء .. كانت برغم ضعفها وشحوبها وفستانها الرخيص وعقدها الزجاجي.. تبدو كملكة قد أسرها الذل أذلها الاحتياج. همست تقول في صوت يفيض برائحة بكاء وجراح لا نهاية لآلامها : ماذا سيقول الجيران عندما يشاهدون رجلاً غريباً يطرق باب امرأة مطلقة لا زوج لها ولا أب .. ولا أخ ؟.

أجابها في قسوة وغضب : وماذا فعل هؤلاء الجيران عندما شاهدوا ذلك المجرم ينهال عليك ضرباً وركلاً ؟.

أقبلت الأم .. عجوز واهنة لا تكاد تميز الأشياء .. تساءلت الأم وهي تتطلع إلى مراد : من أنت يا بني وماذا تريد ؟.

أجابت الابنة ذات الاثني عشر عاماً : إنه الشاب الذي أنقذ أمي من يد رمضان المجرم.

اندهش مراد من الإجابة .. كانت كلمات الابنة الغاضبة

تؤكد أن ذلك الوحش الآدمي لا يمكن أن يكون هو والدها بأي حال.

على الفور تبدّلت ملامح الأم العجوز .. اشرق وجهها بنظرة شكر بالغة وهتفت مرحبة لمراد : تفضل يا بني على الرحب والسعة .. إن لك جميلاً في عنقنا لا يمكننا رده أبداً.

خطا إلى داخل الشقة القليلة الأثاث.. جدرانها تحمل آثار قسوة الزمن، ومائدتها الصغيرة المكسورة تشكو الفقر والاحتياج.

جلس على أقرب مقعد وكريمة لا تزال واقفة بالباب .. والطفلان والفتاة قد تعلقت عيونهم بأكياس الهدايا في جاذبية لا تقاوم، وأصوات تنفسهم تصل إلى حد اللهاث.

أشار مراد للطفل ذي السنوات الثلاث وسأله باسما : ما اسمك ؟.

أجاب الصغير في صوت متعثر : رامي.

مد مراد يده بأحد الأكياس إلى الصغير قائلاً : هذه الحقيبة لك .. بها ملابس جديدة وأحذية على مقاسك و ...

ولم يكمل لأن الطفل اختطف الحقيبة وهرع بها إلى حجرته فراقبه مراد بابتسامة اشفاق. واقترب الصغير الآخر. قال في تردد : أنا اسمي ممدوح.

مد مراد يده إليه بما يخصه من أكياس الهدايا .. فالتقطها الطفل وعيناه تومضان بنار الفرحة وأسرع خلف أخيه. أما الفتاة فوقفت تحدق في مراد بصمت .. سألها باسما : وأنت ما اسمك ؟.

لم ترد .. ووقفت تحدق فيه كأنها لم تسمع سؤاله وأجابته الأم العجوز : اسمها هدى.

ـــ هذه الهدايا لك يا هدى.

نظرت إليه الفتاة في تقطيب .. بدا عليها أنها تصارع رغبتها في الحصول على هداياها.. وتهاوت مقاومتها سريعاً.. وارتعشت يداها وهي تمتد لتلمس حقائب هداياها ثم احتضنتها وأسرعت خلف أخويها.

انتفضت كريمة غاضبة وأقبلت نحوه قائلة : لماذا أتيت بهذه الهدايا .. لم يطلب منك أحد شيئا.

كان في نبرة صوتها كبرياء لم يمسه إنسان بعد، برغم

آثار الكدمات الواضحة ورتوق ثوبها الرخيص، والمائدة المكسورة.

أجابها في رفق : جئت بها للأطفال وليس لك.

أضافت في قسوة : لست أخا ولا أبا ولا زوجا.

أجابها في رقة : اعتبريني أخا منذ تلك اللحظة.

انتفضت غاضبة كأنما نكأ جراحها وقالت : لم يكن لي غير أخ وحيد اختطفه القدر غدراً، ولا يمكن لإنسان أن يكون مثله أبداً.

هتفت الأم العجوز غاضبة: كفى يا كريمة.. لا تظني السوء بكل إنسان حولك.. لا يزال بالدنيا أناس أخيار طيبون.

أجابتها في حدة وثورة: لم يعد في هذه الدنيا غير الأشرار والقساة ومن ماتت ضمائرهم.

واندفعت إلى حجرة أطفالها كأنها تنوي شيئا لن تتراجع عنه أبداً. ومن داخل الحجرة تصاعد صوت بكاء الأطفال الثلاثة .. بدا واضحا أن أمهم تحاول أن تستعيد منهم الملابس والهدايا ولكن الصغار يتشبثون بها .. بعد قليل هدأت الضجة .. وضح أن كريمة فشلت فيما أرادت،

وأن تشبث الأطفال بهداياهم كان أقوى من غضبها.. فتعالى نشيج الأم المكبوت كأنه إعلان عن هزيمتها أمام الفقر والاحتياج.

مسحت الأم العجوز دمعة من عينها وقالت لمراد : اعذرها يا ولدي فقد قاست كثيرا .. إن حياتها سلسلة من الآلام .. مات أبوها وهي طفلة ولم يترك لنا شيئا غير معاش ضئيل، واضطررت لتزويجها مبكراً وهي في الرابعة عشرة من عمرها .. وكانت طفلة لا تعي شيئاً وظننت أن الزواج سيؤمن لها حياتها ومستقبلها .. وكان العريس شابا ثريا يمتلك الكثير .. وبكت هي رافضة أن تترك مدرستها لتتزوج ولكني أجبرتها على ذلك.

ونكست العجوز رأسها.. مسحت دموعا متسالة وأكملت في صوت مختنق : بعد أيام قليلة اكتشفنا أن العريس غير مكتمل القوى العقلية .. كان يسجنها في حجرة مظلمة كالزنزانة ويتمتع بتعذيبها وتجويعها .. وبعد عدة أشهر تمكنت من تطليقها منه بعد أن تحولت إلى شبح آدمي .. وعادت لي وهي حامل في هدى.. فأضيف إلينا عبء

جديد.. فأهل زوجها رفضوا أن يعطوها مليماً واحداً نفقة لها ولابنتها .. وعندما مات زوجها المعتوه في حادث سيارة، كان أخوه الثري قد استولى على كل ثروته بالتحايل .. فلم ترث ابنتي منه شيئاً وبقيت تصارع الفقر والاحتياج مع ابنتها.

عض مراد شفتيه ألماً وقال : ما أقسى قلوب بعض الناس في هذا العالم.

أكملت الأم في مرارة أشد : تعلمت كريمة الخياطة لتنفق على نفسها وابنتها .. وبعد سنوات تقدم شاب آخر طالبا يد كريمة .. كان يبدو عاقلاً رزيناً يكسب الكثير من عمله كصاحب محل للأدوات الصحية .. وكانت هي لا تريد أكثر من رجل يصونها ويؤمّن لها حياة كريمة ولكن .. كان الزوج الثاني أسوأ فقد كان مقامراً وكنا نجهل ذلك عنه .. وبعد الزواج تحايل عليها لكي يستولي على مصاغها القليل الذي ادخرته من عملها وباعه ليقامر به .. ثم بدأ يبيع أثاث منزله .. وعندما هددته كريمة بطلب الطلاق إن لم يصلح حاله، إتهمها أمام الشرطة

بسرقة ماله .. وكادت تُسجن بسبب ذلك، ولولا أن تنازلت له عن النفقة لما تنازل عن اتهامه لها بالسرقة .. وهكذا عادت لي مرة أخرى ومعها طفل ثاني هو ممدوح بدون أي مصدر للرزق أو مال يعيش منه الطفلان.

شحب وجه مراد بشدة .. كان يستمع ذاهلا لا يصدق. وواصلت الأم وقد كسا وجهها شحوب قاتل : أما الزوج الثالث فقد جاءنا تسبقه شهرته كرجل تقي ورع، ورفضته كريمة في البداية فقد كرهت الزواج ولكني أقنعتها أن فشل تجربتين لها لا يعني أن تظل بلا زواج طوال حياتها .. وخاصة أن طفليها في حاجة إلى من ينفق عليهما بعد أن استولى زوجها الثاني على كل ما تملكه حتى ماكينة الخياطة، فانقطع مورد رزقها الوحيد..

قال مراد ببطء : وتزوجت كريمة من ذلك الوحش .. رمضان ؟.

انفجرت الأم في بكاء مرير قائلة : ليتها ما تزوجته .. لقد كان تديّنه يخفي وراءه شراسة وقسوة لا حد لهما .. فهو شيطان في صورة إنسان تظاهر بالتقوى من أجل

مصالح خاصة ويفرض الإتاوات على أتباعه ثم يكنز المال ويرفض الإنفاق حتى على طعامه بالرغم من عمله كسائق لسيارة نقل يكسب من ورائها الكثير .. ولم نكتشف كل هذه الأشياء إلا بعد زواج كريمة منه .. فجعل حياتها جحيما لا يطاق من الإهانة والضرب ورفضه الإنفاق حتى على طعامها .. أو على طفله الصغير الذي أنجبته كريمة منه.

ــ وطلبت كريمة الطلاق .. أليس كذلك ؟.

ــ في البداية رفض أن يطلقها قبل أن يستولى على ما تبقى مما ادخرته من عملها قبل زواجها منه.

تساءل مراد وقد تضاعف فضوله : ولماذا كان يضربها في الطريق ؟.

ــ لأنها رفعت عليه قضية نفقة لها ولابنها منه .. وأراد منها أن تتنازل عن القضية فصار يضربها كلما صادفها في الطريق دون أن يجرؤ إنسان على منعه والتصدي له خوفاً منه.

هتف مراد غاضبا : كان بإمكانها أن تستدعي الشرطة له لتسجنه وتؤدبه.

بدا الذعر على وجه الأم العجوز وقالت :

ــ أنت لا تعرف رمضان .. لقد ضربها ذات مرة فذهبت لتشكوه في قسم الشرطة، فهددها أتباعه أن يقتلوا أطفالها إن لم تتنازل عن اتهامها له .. إنها تعيش في رعب منه.

غمغم مراد بغضب : هذا الوحش . إنه في حاجة لمن يؤدبه وأنا مستعد أن أفعل ذلك بنَفسي.

هتفت الأم بجزع : لا يا ولدي .. ابتعد عن طريقه .. إنه مجرم لا يتورع عن شيء .. ولهذا يخشاه كل أهل الحي، ولذلك لم يجرؤ أحدهم على إنقاذ كريمة من بين يديه.

وتأملت مراد في حنان وأكملت قائلة : بارك الله فيك يا ولدي .. ولكن خذ حذرك من ذلك المجرم، رمضان، فهو لن يتسامح معك أبداً لما فعلته به.

ــ أجابها بهدوء : لا تخشي شيئا .. أنا أعرف كيف أؤدبه في كل مرة لو كان له عشرة أتباع.

وأخرج من جيبه مبلغا من النقود قدمه إلى الأم العجوز قائلاً : أرجو أن تقبلي هذا المبلغ مني.

شحب وجه الأم وهمست في ضعف : لا يا ولدي .. سوف تغضب كريمة وتثور و ...

قاطعها قائلاً : ومن سيخبرها عن ذلك .. احتفظي بالمال معك وتظاهري أنه مالك وأنفقي منه عندما يحتاج الأطفال لشيء.

مدت العجوز أصابع مرتعشة تأخذ المال وتدسه في صدرها، ثم قبّلت مراد فوق جبهته بوجه بكي وهي تقول: جازاك الله كل خير يا ولدي.

وتحرك مراد ليغادر المكان .. لم يلمح كريمة في خروجه .. كانت لائذة بحجرتها تجتر آلامها وأحزانها .. وأطفالها في ملابسهم الجديدة تشرق في وجوههم فرحة العيد .. وقد أحاطوا بمراد في سعادة غامرة يودعونه .. فاحتضن الطفلين وقبّلهم .. أما هدى فشاع في وجهها ابتسامة رائعة .. وبدا في عينيها الزجاجيتين تعبير ضئيل من الحياء.

وفي الطريق إلى سيارته لمح بعض العيون تتطلع إليه من سكان الحارة. نظراتهم جامدة صامتة لا حياة فيها .. كأنما يسكنها خوف مجهول، أو كأنها تحمل إليه تحذيراً ما، تخرسه قوةٌ أكبر من إرادتهم.

ولكن أحدا لم يعترضه فاستقل سيارته وتحرك بها ليغادر المكان. وقادها لأمتار قليلة نحو الطريق العام عندما لمح الترام قادماً في الاتجاه المعاكس، ضغط على فرامل السيارة ليهدئ السرعة ولكن السيارة لم تتوقف أو تهدأ.

دق قلب مراد بعنف .. عاود ضغطه على الفرامل فلم تستجب له .. أدرك في لحظة سر نظرات سكان الحارة المسكونة بالخوف وعيونهم المحذرة ..

لم يكن هناك شك في أن أصابع رمضان كانت خلف الفرامل المقطوعة وأنها اختارت الانتقام بطريقة قذرة .. وأدار مراد مقود السيارة بكل قوته ليتفادى الاصطدام بالترام .. ولكن من الناحية الأخرى برزت سيارة نقل كبيرة تسير بأقصى سرعتها كان مستحيلا على مراد تفاديها .. ووقع الاصطدام في دوي رهيب.

« جراح امرأة »

مشاهد مختلطة مشوهة غير محددة المعالم .. إمرأة تنوح عليها النسوة في ملابس سوداء، وإمرأة أخرى بدينة زاهية الملابس تضرب طفلا في قسوة بلا رحمة .. ووحش آدمي ينهال ركلا وصفعا على امرأة ضعيفة رقيقة .. وأطفال صغار ينقضون على الملابس الجديدة .. وإمرأة عجوز ضعيفة البصر تبكي حظ ابنتها .. ونظرة محذّرة في عيون الجيران .. وترام قادم وسيارة لا فرامل لها .. وصوت اصطدام قوي.

فتح مراد عينيه في جهد بالغ .. كان يشعر بألم شديد في مقلتيه وسحابة غائمة تتراقص أمام وجهه .. استطاع بجهد أن يميز ما حوله .. حجرة بيضاء الجدران ودولاب صغير بنفس اللون الأبيض إلى يساره .. وفتاة في ملابس

ملائكية تغرس إبرة في ذراعه بدا واضحا أنها ممرضة، وأنه يرقد في إحدى المستشفيات.

هتفت الممرضة في سرور عندما شاهدته يستعيد وعيه : حمداً لله على سلامتك.

قطّب حاجبيه وتنبه للضمادة التي تحيط رأسه .. سألها : ماذا حدث لي ؟.

ـــ حادث سيارة.. كانت معجزة أن تنجو منه.. ما أصابك مجرد خدوش ولكنك بقيت غائبا عن وعيك لمدة أسبوع بسبب ارتطام رأسك بمقود السيارة.

غمغم في دهشة بالغة : أسبوع وأنا غائب عن الوعي ؟!

ومرت لحظة قبل أن يسأل : ألم يأت أحد للسؤال عني ؟.

أجابته الممرضة بابتسامة دافئة : نعم .. أختك كانت ترافقك باستمرار .. وأصرت منذ اللحظة الأولى أن تكون بجوارك برغم أن هذا مخالف للتعليمات.

غمغم في تساؤل ودهشة بالغة : أختي ؟.

ـ نعم لا شك أنها تحبك حباً عظيماً .. إنها لم تتوقف عن البكاء بسبب ما حدث لك، وتمنت لو أنه ما أصابك قد أصابها بدلاً منك.

ابتلع مراد دهشته البالغة وتساءل : وأين هي ؟.

أجابته الممرضة في بساطة : لقد اجبرها الطبيب المعالج لك على أن تعود إلى بيتها مساء أمس.. فقد شحب وجهها الهزيل وهزل جسدها بسبب إصرارها على أن تكون بجوارك دائما دون أن يغمض لها جفن طوال ليال عديدة.

لم يكن لمراد أي أخوات .. ولا أحد له غير أقرباء بعيدين لن يهمهم السهر على سلامته .. وقبل أن يسأل عن شيء ما انفتح باب الحجرة، وهتفت الممرضة قبل أن يعي القادم : ها هي أختك قد أتت.

كانت كريمة ..

وقفت لحظة تحدق فيه صامتة .. ثم انفجرت أساريرها عن ابتسامة تكسوها فرحة طفولية غامرة. وشهقت ببكاء سعادة حاد وهتفت : حمداً لله أنك استعدت وعيك أخيراً.

ومسحت دموعها وهي تتطلع إليه في ابتهاج بالغ. تأملها مراد في صمت وود وهمس لها: تعالي بجواري يا أختي العزيزة.

انسحبت الممرضة باسمة ..

بان التردد على كريمة .. همست تقول في اعتذار : سامحني .. اضطررت أن أقول أنني أختك حتى يسمحوا لي بالبقاء بجوارك والعناية بك.

قال لها شاكراً : لو كان لي أخت حقيقية لما فعلت معي مثلما فعلت أنت.

قالت في ألم : أنا السبب في كل ما جرى لك.

قاطعها في رفق : كلا لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .. لا أحد منا يختار الأحداث التي يلقينا القدر في أتونها .. لا أنا ولا أنت اخترنا ما يصادفنا من حوادث وآلام.

أشار لها أن تجلس أمامه .. فجلست في صمت وعيناها تهربان من مواجهته.. جلست منكمشة بنظرة تائهة فبدت أكثر دقة ورقة.

تأملها مراد وقد غاب عنه كل ألمه .. كانت تبدو بالغة الجمال .. برغم الشحوب الذي لا يزال يكسو وجهها الخالي من مساحيق التجميل، فقد كانت ملامحها تبدو كسيدة نبيلة عاشت عمرها كله ترفل في العز والراحة .. وقد اختفت من وجهها كل الندوب وآثار الضرب فبدا صافيا رائعا كوردة متفتحة.

همس يسألها : كيف حال أمك والأطفال ؟.

غمغمت : بخير .. المهم أنت.

ـــ أنا بخير كما ترين .. عمر الشقي بقي.

ترقرقت الدموع في عينيها فبدتا أشبه بماستين مغسولتين بماء المطر، وقالت: بعدما غادرتنا سمعنا صوت الحادث .. خرجت مفزوعة وقلبي يحدثني أن مكروها قد أصابك .. وصح ظني وجاءت سيارة الإسعاف لتحملك إلى المستشفى وقلبي يتمزق عليك .. وكنت مستعدة لأن أذهب إلى الشرطة وأتهم رمضان بأنه هو من حل فرامل سيارتك حتى لو قتلني بسبب ذلك .. ولكنني خشيت عليك أنت .. فلا دليل ضده .. وقد يستطيع إيذاءك مرة أخرى وأنت مصاب لا حول لك ولا قوة.

وشهقت بالبكاء والعجز وهي تضيف : تمنيت لو أن ذلك الحادث قد أصابني أنا .. حياتي كلها لا تساوي شيئا ولا تهم أي إنسان.

تأملها في حنان وهو يقول : لا تقولي ذلك .. إن حياتك تساوي الكثير .. لديك أطفالك وأمك على الأقل.

قالت في مرارة : أحيانا تبدو حياة الإنسان عبئا ثقيلا حتى على نفسه .. في أحيان كثيرة تمنيت لنفسي الموت لارتاح من رحلة شقائي الدائمة في الحياة.

همس في رفق : لا تيأسي من رحمة الله.

مسحت دموعها وقالت : عشت حياتي كلها أبحث عن لحظة أمان .. أتمنى ليلة أنامها وأنا مرتاحة البال لا تمتلئ فيها عيناي بالدموع ولا يفيض فيها قلبي بالأحزان .. حياتي كلها عشتها أبحث عن تلك اللحظة دون أن أدركها حتى هانت عليّ حياتي.

قال في إشفاق : أنا أقدر ما تقولين .. فقد عشت نفس الأيام المريرة .. ولكني لم استسلم لأحزاني وآلامي وجعلتها حافزاً لي لأحقق كل أحلامي.

قالت في وهن : أنا امرأة ضعيفة وحيدة لا تقدر على شيء .. وأحلامي كوابيس ومخاوف .. أعيش مرتعبة من أيامي السابقة والقادمة .. أخاف من نفسي ومن زوجي السابق .. أرتعد من كل كلمة ينطق بها رجل غريب، أو أي نظرة أو إشارة من جار أو عابر سبيل .. أنا إمرأة مطلقة .. والمرأة المطلقة يعتبرها البعض كياناً مستباحاً .. لا كرامة له ولا إرادة .. فما بالك بامرأة طُلقت ثلاث مرات ..

صدقني .. إنني أقاتل كل لحظة من أجل أن أحيا دون أن تنهشني عشرات الذئاب التي تتربص بي .. يكفي الشقاء الذي يعاني منه أطفالي .. لا أريد أن أترك لهم ذكرى جديدة ملوثة لا يمكنهم أن يمحوها مهما فعلوا .. أنا إمرأة شقية محكوم عليها بالموت كل لحظة، من القدر وكل المحيطين بها.

همس مراد في حنان : بل أنت أميرة.

قالها مراد وهو يتأمل ملامحها في شغف .. صدمت العبارة كريمة فتطلعت إليه في دهشة وسكون وعيناها

السوداوان الواسعتان تعكسان أقصى ملامح الدهشة. عاد مراد يكرر : نعم .. أنت أميرة حقيقية .. كان يجب أن يكـون مكـانك بيـن أبنـاء القصـور .. لا أدري كيف كنت شيئا رخيصا لثلاثة رجال استقروا في حياتك لبعض الوقت، دون أن يدركوا أنهم يمتلكون جوهرة عظمية.

شحب وجهها وهمست : لماذا تقول عني ذلك .. لست إلا إمرأة محطمة تعيسة ؟.

أجابها في رقة : بل أنت إمرأة نبيلة عظيمة .. يكفي أن ثلاث تجارب فاشلة لم تحطمك وأنك لا تزالين صامدة لأجل أطفالك .. يكفي أنك تتسامحين وتغفرين لكل من أساءوا لك في زمن لا يسامح فيه الأخ أخاه والابن أباه .. يكفي أنه برغم حرمانك واحتياجك رفضت مالاً لا غرض من ورائه حتى لا يظن أي إنسان أن له حقاً عليك.

تبللت عينا كريمة بالدموع وهي تقول : لم أكن أظن يوما أن احتياجي للمال قد يشقيني .. أنا لم أهتم بالمال طوال عمري، ولكن الحال مع ثلاثة أطفال يختلف كثيرا .. إنهم لا يفهمون ما أعانيه والصراع الذي أكابده ..

كنت أتمنى لو أنني وفرت لهم حياة كريمة دون احتياج .. كانت أحلامي وأنا طفلة أن أنهي تعليمي وأصبح شيئاً مرموقاً ولكن حياتي تحطمت على صخرة الزواج المبكر .. كنت طفلة لا أعي شيئا .. والآن صرت امرأة مجربة قلبها مليء بالجراح والأخاديد العميقة .. لست أتمنى لنفسي شيئا الآن .. لا رغبات لي ولا مطامح .. كل ما أرجوه ألا تقسو الدنيا على أطفالي ايضا وأن تحقق لهم ما لم تحققه لي.. فلا ذنب لهم سوى أنهم أبناء امرأة بائسة يعاندها القدر دائما .. أتمنى لو أنني ضحيت بعمري كله لأنقذهم من شقاء الحرمان والمستقبل المؤلم.

وتساقطت دموعها كحبات لؤلؤ تفرزها محارة وتنهشها الآلام، فأدمى منظر الدموع مشاعر مراد.. وهمس بها في ألم : أرجوك .. توقفي عن البكاء .. لا أطيق رؤية دموعك.

ومد أصابعه ليربت فوق كفها برفق .. ولكنها سحبت يدها مذعورة خائفة .. وشحب وجهها وزاد لهاثها كأنما سرى من أصابعه تيار كهربائي صاعق إلى بدنها، وراحت

تحدق في مراد بشفتين مرتعدتين زرقاوين.

همس مراد بها في دهشة : ماذا بك ؟.

ابتعدت عنه بوجه شاحب قائلة بصوت يشي بصراع حاد : لم تعد لي فائدة الآن لبقائي بجوارك .. لقد استعدت وعيك وصحتك وستخرج من المستشفى قريبا .. لقد فعلت كل ما يمكنني أن أفعله لك.

وتراجعت نحو باب الغرفة وعيناها الواسعتان تحدقان فيه بوجه متقلص .. ثم هتفت به قبل أن تغادر المكان : يكفي ما لاقيته بسببي فلا أحد يمكن أن يعرف ما قد يحدث لك في المرة القادمة .. لا تحاول أن تأتي لزيارتي مرة أخرى وإلا ربما فكر رمضان في قتلك .. دعني لمآسيَّ ومشاكلي فهي قدري ولن يستطيع إنسان أن يُخرجني منها مهما كانت درجة إشفاقه علي.

وغادرت المكان كأنها طيف .. وخيل لمراد أنه يسمع بكاءها وهي تعدو في ممرات المستشفى وهي تغادرها هاربة، كأنها تفر من خطر غامض مجهول.

وتساءل ذاهلا ما الذي أصابها .. هل اعتبرت مجرد

لمسته لأصابعها إثماً أو مقدمة لشيء خاطئ .. كان فقط يرغب في تهدئتها .. في أن يسكب بعض الطمأنينة في روحها المعذبة الشاردة طوال عمرها بحثا عن لحظة راحة من هجير القدر القاسي، ولعلها الآن تظنه أحد الذئاب الكثيرين المحيطين بها، والمستعدين لنهشها عند أول لحظة ضعف منها.

عض شفته السفلى في ألم وندم.

كان متأكداً أنها ذهبت ولن تعود ثانية .. وكان هو في حاجة إليها .. في حاجة إلى الإنسانة الوحيدة التي وقفت بجواره في محنته.. عرف الكثير من النساء في حياته اللواتي كن مستعدات لمنح أقصى التنازلات مقابل بعض المال، بالرغم من انهن كن يمتلكن الكثير ولا حاجة بهن لهذا المال.

وها هي امرأة مجروحة لا تملك شيئاً ولا حتى قوت يومها وأطفالها، وتخشى من مجرد لمسة يد لا تعني شيئا. امرأة مستعدة لأن تضحي بحياتها لأجل أطفالها، ولا تفرط في خدش كرامتها مهما كان الثمن.

كانت امرأة نبيلة برغم القدر القاسي .. وبرغم أحلامها

التي عصرتها الأحزان.. كانت ثمة ذكرى مؤلمـة تطفـو إلى عقله وذاكرته كلما وقعت عيناه عليها. ذكرى الآلام والأحزان السابقة. وأغمض عينيه في ألم بالغ كأنه يرغب في الهرب من العالم كله.

« اشتهاء القلب »

وغادر المستشفى بعد أيام قليلة وقد استعاد صحته.

وخلال تلك الأيام عانى آلاماً لا حصر لها.. أصبحت صورة كريمة تشغل رأسه وعقله ليل نهار. كلما انفتح باب حجرته تمنى لو كانت هي القادمة. وكلما دق جرس الهاتف بجواره اختطف السماعة متلهفا .. ولكنها لم تأت أبدا .. ولا سمع صوتها. راح عقله يسترجع كل الكلمات التي دارت بينهما آلاف المرات .. وعيناه تأبيان أن تنسيا عيناها السوداوين الواسعتين العميقتين كقلب محيط مجهول غارق في الأسرار .. وفيهما من السحر والجاذبية ما لم يصادفهما عند أي امرأة أخرى قط.

تضاعف إحساسه بالوحدة بغيابها بالرغم من أنها لم تسكن حياته غير أيام قليلة .. ولكنها كانت كافية ليشعر

باليتم مرة أخرى عندما فقدها. لو أنه قابلها في ظروف أخرى .. لو لم تكن أما وزوجة لثلاثة رجال سابقين، لما تردد لحظة في أن يتزوجها .. كانت الزوجة بالنسبة له تعني امرأة لم تجرب رجلاً غيره .. هو الأول والأخير في حياتها، وأول رجل يوقظ مشاعرها .. يكون هو قطبها واتجاه بوصلتها .. لم يمس آخر أوراق طهارتها، ولا اقتطف آخرون ثمار أنوثتها. ظل عقله يردد .. لو أن الزمان لم يكن هو الزمان لكانت رفيقة عمره إلى نهاية العمر .. لم يكن سيختار من هي أجمل منها .. ولا من هي أرق قلباً وأطهر أخلاقاً.

كانت ستصبح هي الأميرة التي تجلس في عرض مملكته وتغترف من كنوز مشاعره وعواطفه. ولكن القدر لا يأتي بما يشتهيه كل إنسان .. ولا هو طوع رغبة أي إنسان.

كان مقدّراً لكريمة أن تكون لثلاثة رجال قبله .. فاستحال على عقله أن يقبل بكونه محطة في قطار حياتها .. وآخرون كانوا محطات سابقة لنفس القطار. ولكن قلبه .. وآه من قلبه. لم يدرك أن للقلب سلطاناً قد يفوق سلطان العقل إلا تلك اللحظة.

باتت رغبته في أن يراها أقوى من كل رغبة أخرى .. كان يتمنى نظرة إلى عينيها .. لمسة أخرى لأصابعها الرقيقة الندية. أن تطوف عيناه بملامحها وتعانق رموشه سهام عينيها .. أن يجلو أسرار عينيها ويزيح الشقاء الساكن في جفونها منذ الأزل، ويهبه شيئاً من الطمأنينة والأمان.

وغادر المستشفى وهو يكبت رغبة حارقة مؤلمة شعر أنها لحظة ضعف لا تليق به.

لا يمكنها أن تكون له أبداً. انتصر العقل. ولكنه كان انتصارا مؤقتا، زائفاً. تراجعت كل الاعتبارات الأخرى خلال الأيام التالية القليلة.

أصبح شارداً ساهماً .. لا رغبة له في طعام أو شراب أو نوم .. قد تمر عليه ساعات طويلة وهو في مكانه غير دارٍ بالعالم من حوله.

تغلغلت كريمة في مشاعره حتى صارت هي البدء والمنتهى .. هي الأمل والرجاء .. ذابت كل الاعتراضات ووهن صوت العقل والإرادة ولم يبق غير همس مشاعره الصاخب. لا يريد في الدنيا غيرها .. وليس ذنبها أن أقدام

الحياة داستها في طريقها بلا رحمة، والقت إليها بثلاثة وحوش مزقوا حياتها ونهشوا طمأنينتها وسكينة روحها .. تماما مثلما كان لا ذنب لذلك الطفل اليتيم في أن تكون له زوجة أم قاسية لا ترحم ..

عليه أن يحاسب القدر .. لا أن يحاسبها هي.

ولا أحد يقدر أن يحاسب القدر ؟

وهكذا اتخذ قراره .. وبدا عليه كأنه انبعث من الموت من جديد .. أو كأنما أشرقت في سماء حياته أنوار إلهية. وأسرع إليها كأنما يخطو إلى الجنة .. وحمل بين يديه باقة ورد لم تكن تناسب المكان ولا نظرات الفضوليين من سكان الحارة.

وعندما طرق الباب فتحته هي. وتسمرت في مكانها. بدا كأنها أصيبت بالشلل أو كأن مجيئه هو آخر ما توقعته .. لمح تحت عينيها هالات زرقاء وسوداء علامة على بكاء متصل .. ووجهها المستدير الحلو قد تضاعفت جاذبيته برغم شحوبه وذبوله.

قال يسألها في رفق : ألن تسمحي لي بالدخول ؟.

عضت على شفتيها بقسوة وهي تقول : رجوتك ألا تأتي إلى هنا ثانية.. لماذا تضعني في مواقف صعبة دائماً ؟.

أجابها : لا يمكنك أن تطردي ضيفاً من بابك.

وتساءل صوت الأم من الداخل : من بالباب يا كريمة ؟.

أجابها مراد : إنه أنا.

أقبلت الأم بدهشة، حدقت فيه غير مصدقة ثم هتفت بسعادة بالغة : حمداً لله على سلامتك يا ابني .. لقد شُفيت تماما.

واحتضنته بقوة كعزيز غالٍ فأشرق وجه مراد بالسعادة .. مد باقة الورد إلى الأم التي تطلعت إليها بدهشة. لم تكن معتادة على الورود ولا حتى على عطر رخيص. ونظرت إلى الزائر في تساؤل وحيرة. فقال مراد يقطع حيرتها : هذه الورود للمناسبة السعيدة.

رددت في دهشة : المناسبة السعيدة ؟

أجابها وهو يتأمل رد الفعل لدى كريمة : .

ـــ نعم .. لقد جئت طالباً يد كريمة.

على الفور بدا وكأن العبارة كانت رصاصة مباغتة .. تراجعت كريمة للوراء بشفتين مرتعدتين وقد ضاقت عيناها لأقصى حد .. بدا عليها ذهول قاتل وعدم تصديق.

وحملقت الأم بدهشة أقرب للذهول في مراد .. ثم أطلقت زغرودة عالية. ولكن صوت كريمة الصارخ قطع فرحتها وهي تصيح : هل جننت يا أمي .. ماذا سيقول الجيران ؟.

أجابت الأم بسعادة لا حد لها : سيقولون أن عريساً لا مثيل له يطلب يدك للزواج.

ضاقت عينا كريمة وتصاعد لهاثها وهي تقول في احتداد وغضب : ومن قال أنني أوافق على الزواج .. هل ستزوجينني ثانية رغماً عني ؟.

تساءلت الام ذاهلة وهي تدق على صدرها بيدها : هل جننت .. هل ترفض أي فتاة عريسا مثل الأستاذ مراد ؟.

ورمقت ابنتها بنظرة نارية كأنها تذكرها بأن من كانت مثلها تعتبر عريساً مثل مراد هو كنز من السماء بعد تجاربها السابقة المريرة.

همس مراد يقول للأم العجوز برقة : أرجوك .. دعينا وحدنا.

انسحبت الأم في صمت تتوكأ على آلامها .. والتفتت كريمة إلى مراد في قسوة قائلة : هل جئت تسخر مني ؟.

أجابها في ثقة : وهل تعتبرين طلبي للزواج منك سخرية ؟.

قالت ساخرة : كنت أظن إنك جئت تعرض مالاً أو مساعدة شفقة بي وبأطفالي .. ولم أظن لحظة أن شفقتك عليّ ستصل إلى حد أن تطلب يدي للزواج.

أجابها دون أن تستدرجه سخريتها: ما من رجل يتزوج امرأة شفقة عليها.

قالت بقسوة : بعض الرجال يعيشون في أوهام رومانسية .. فيظنون أنفسهم فرساناً من عصور ماضية ويضحون بأشياء كثيرة إثباتا لفروسيتهم، ثم يفيقون بعد أن يخسروا كل شيء.

أجابها : لست فارساً ولا أضحي بشيء عندما أطلب يدك.

قالت في ألم : تفصلنا بعضنا عن بعضٍ آلاف الأشياء.

أجابها في حنان: خلق الله الرجل والمرأة ليسكن كل منهما للآخر مهما كانت الأسباب التي تفصل بينهما ..

قالت بوجه خالٍ من المشاعر : لست من عالمي .. أنت هناك تعيش في وضح النهار في عالم مليء بالمباهج والمستقبل السعيد .. وأنا مكاني الظلام واجترار الماضي والأحزان، فلا يمكن أن نتلاقى أبداً.

أجابها في رقة وحنان بالغين : لقد ساوى الله الناس كلها في الميلاد والوفاة .. وما بينهما يمكن أن يتبّدل فلا شيء يبقى على حاله، فلا تلوميني على أشياء لا دخل لي أو لك بها.

وفي رقة هَمَس يرجوها قائلا : كان يمكن لقدرك أن يرفعك لأعلى وأن يهبط بي لأسفل .. فهل كنت ستقولين نفس الشيء عني إذا ما طلبتك للزواج ؟.

حدقت فيه بوجه جامد كصفحة نهر كفٌ عن الجريان، ثم تبدلت ملامحها إلى الفيضان، وسألته متنمرة : إنك لم تخبرني حتى هذه اللحظة .. لماذا جئت تطلب يدي ؟.

ـ لأني أحبك.

أجابها مراد في رقة وعيناه تعكسان حزناً صامتاً لسؤالها .. وأشاحت كريمة بوجهها في قسوة دون أن تؤثر فيها عبارته قائلة : ألا يزال البعض يتحدث عن الحب في هذا العالم القاسي الذي لا قلب له ولا مشاعر ؟.

هتف بها في عنف : نعم .. لا يزال هناك من يتحدث عن الحب لأنه لم يمت بعد، ولا يمكن أن يموت أبداً ما دامت هناك قلوب تنبض بالحياة.

وأمسكها من ذراعيها وهزها في قسوة كأنه يؤكد لها عبارته .. فهتفت به غاضبة وهي تحاول الانفلات منه : دعني .. هل تظن أنك ستجبرني على الزواج منك رغما عني .. لن يكون لرجل آخر مكان في حياتي.

أجابها في إصرار بمشاعر ملتهبة : بل سيكون .. لقد شاء الحظ ألا أكون أول رجل في حياتك .. ولكني سأكون الأخير ولن يجرؤ القدر على معاندتي أبداً.

وتواجها في عنف وثورة .. هي تحاول الانفلات منه وقد ارتعدت كل أطرافها في غضب، وهو يقبض بأصابعه

على ذراعيها النحيلتين متعمداً أن يقسو عليها كأنه يعاقبها على ترددها ورفضها. وفشلت محاولتها وأحست بقسوة أصابعه فهتفت مسترجية في ألم : أرجوك .. دعني فإنك تؤلمني.

أجابها في قسوة أشد : لن أدعك قبل أن توافقي على أن تصبحي أميرة مملكتي وسيدة قلبي.

قالت باكية كأنها تشكو غدر الزمن : أرجوك .. لماذا أنا بالذات ؟.

أجابها :

ـــ لأن قلبي اختارك دون غيرك .. لا تسأليني أنا عن سر اختياري .. اسألي القدر الذي جمعنا في تلك الظروف .. قلت أنك ظللت عمرك كله تبحثين عن الأمان والطمأنينة .. وهأنذا جئت أقدمهما لك مع حبي .. فلماذا ترفضين ؟

قالت باكية : أخشى أن تندم يوما ما على اختيارك.

أجابها في ثقة : لن أندم معك أبداً .. مع الحب لا يكون هناك ندم أبداً.

وتأمل عينيها الغارقتين في الدموع وهمس يقول لها مهوّناً : لن أطالبك بأن تحبيني .. أعرف أن قلبك مليء بالجراح التي قد لا تشفى أبداً لكي يكون بها موضع لحب جديد .. فقط أطلب منك أن تتركيني أمنحك من الحب ما يعوضك عن كل لحظات الشقاء السابقة .. أريد أن أمسح كل جراحك وآلامك، ولست أرغب إلا في أن يكون لي مكان في حياتك .. لا أطالبك بأن تمنحيني حبا مماثلا .. يكفيني أن تنبض مشاعري جوار قلبك.

عضت على شفتيها في قسوة دون أن تنطق ووجنتاها مبللتان بالدموع .. رفع وجهها بأصابعه وهمس متألماً يسألها : لماذا تبكين يا أميرتي ؟

قالت وهي ترتعد : أخشى أن تندم يوما في وقت لن يفيد فيه الندم.

صارت قبضة أصابعه فوق ذراعيها حانية وادعة وهو يجيبها : لن أندم لأنني أحبك.

همست كريمة في ضعف وقدماها لا تكادان تقويان على الوقوف: أرجوك.. كررها مرة أخرى.. كرر تلك الكلمة الجميلة التي طالما تمنيت أن أسمعها طوال حياتي.

همس مراد يكرر كلمة « أحبك » عشرات المرات .. ارتعش كل جزء في جسد كريمة .. تركت دموعها تغرق وجهها وعنقها .. تشبث مراد بأصابعها في حنان بالغ وهمس يسألها : أتبكين ثانية ؟

أجابته بشجن كطائر يغرد وهو يستقبل بشائر الربيع : نعم.. أبكي لأنني تمنيت آلاف المرات أن أسمع هذه الكلمة منك أنت بالذات .. أنت وحدك دون العالم كله.

تساءل ذاهلا : ماذا تقولين ؟

أجابته ودموعها تختلط بابتسامتها : ألم تدرك بعد أنني أحبك .. لقد أحببتك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها وأنت تبعد عني أذى زوجي الأخير وتدافع عني أمامه دون مهابة أو خوف .. لقد شعرت أنك الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يمنحني الحماية والأمان، وأن أعيش في ظله دون أن أخاف من غدر المستقبل وتقلبات الأيام .. لقد استقر حبك وقتها في قلبي مثل شمس توجت في قلب السماء فأنارت العالم كله .. وتمنيت لحظتها أن أموت .. لكي تنتهي حياتي وليس في قلبي غير حبك .. إنك

لا تدري الأيام التي عشتها معذبة وأنت راقد أمامي في المستشفى فاقد الوعي وأنا أقتل نفسي ندما كل لحظة لأنني السبب فيما جرى لك .. ولا الآلام التي كابدتها بعد أن غادرت المستشفى وطلبت منك أن تختفي من حياتي .. لقد ظلت دموعي لا تنقطع من الانهمار، وكنت أقضي ليلي ونهاري أمام نافذة حجرتي اتطلع إلى الطريق وقلبي يحدثني أنك ستأتي لا محالة ولن تتركني لجراحي وأحزاني مرة أخرى، وأن نفس مشاعري المتقدة قد التهبت في قلبك .. وذلك بالرغم من انني طلبت منك عدم المجيء خشية عليك من قدري .. وها قد تحقق ظني وعدت إليّ ثانية .. لقد كان لي ثلاثة أزواج ولكنني لم أحب إنسانا غيرك أبداً .. كأنك السعادة التي ادخرها لي القدر حتى هذه اللحظة لتمسح عني شقاء ما مضى من أحزان، ولتجعل قلبي ينبض بالحب بعد كل تلك الجراح والآلام.

ارتعد مراد غير مصدق .. امتلأ وجهه بفرحة جنونية .. هتف فيها : لماذا إذن كان الصد والرفض ومحاولاتك إبعادي عنك ما دمت قد أحببتني بنفس القدر ؟

أجابته ودموعها تعانق فرحتها : كنت أعرف أنه حب

يائس لا أمل فيه .. فالنهار والليل قد يتقابلان ولكنهما لا يمتزجان أبداً فما أن يأتي أحدهما حتى يرحل الآخر .. والماس والزجاج يتشابهان .. ولكنهما أبدا لا يختلطان ولا يعكسان نفس الأضواء .. خشيت عليك من حبي فأنا امرأة بلا مستقبل .. امرأة ليس لها إلا الماضي .. وأنت ليس لك غير المستقبل .. وأخاف عليك من ماضيّ.

ضمها مراد إلى صدره وهو يقول : منذ هذه اللحظة ستمحين الماضي من ذاكرتك .. ولن تعيشي إلا مع المستقبل .. وأنا هو المستقبل.

« سيدة مجتمع »

وتزوجا بعد أيام قليلة ..

وجاءت الأيام التالية كأنها الحلم بالنسبة لكريمة .. لم تكن تصدق أن العالم يمكن أن يحتوي على كل ذلك القدر من السعادة، وأن يمنحها لها مرة واحدة.

ففي اليوم التالي للزواج كان مراد قد أعد كل شيء .. فطارا معا إلى « سويسرا » وهناك اكتشفت كريمة أن زوجها يمتلك منزلاً صغيراً أنيقاً وسط الغابات الرائعة والطبيعة الخلابة. ولأول مرة في حياتها شاهدت الشلالات المنهمرة من فوق الصخور، وقمم الأشجار المغطاة بكرات الثلج ..

وراودها إحساس أنها سندريللا وأن مراد هو أمير أحلامها الذي أرسلته إليها قوة عليا لا لارادتها أو حكمتها.

كانت تشعر بحب مراد لها متدفقا هادراً كشلال لا ينضب ماؤه .. وكأن حياته كلها كانت تلبية لأوامرها وإشاراتها .. اشترى لها من الملابس والمجوهرات ما لم تحلم به قط .. وقدم لها من كؤوس السعادة ما لم تشتهه.

كان لا يدعوها إلا يا « أميرتي » .. وصار لا يعاملها إلا كأميرة حقيقية.

وأحست أنها أميرة بالفعل. أميرة عرشها هو قلب زوجها. وحدود إمارتها هي كل تخوم وممالك مراد. تأمر فيطاع أمرها. تبدي رغبة أو أمنية فتتحقق على الفور. وبدا أن ستاراً من السعادة والهناء ينسدل فوق أحزان الماضي وجراحه فتطويها إلى الأبد .. فلا شيء يبدد أحزاناً قديمة غير أفراح متجددة لا تترك لحظة لشجن أو ألم.

أما مراد فكان يعيش أجمل لحظات حياته .. غارقاً في حبه إلى أذنيه .. منحته كريمة من حبها وحنانها ما جعله يشعر أنه أسعد رجل في العالم .. لم يحس لحظة واحدة أنها كانت لثلاثة رجال آخرين غيره .. طوّقه إحساسه أنه الأول والأخير في حياة زوجته، البدء والمنتهى، وأن

ما كان من قبل في حياتها هو مجرد سراب أو سحاب بددته شمس حبه. وهكذا إرتاح يقينه عندما أُبعد شبح الماضي عن عقله وقلبه وعاش لحظته.

وعادا إلى القاهرة بعد انقضاء شهر كأنه الحلم.

عادا ليجدا كل شيء قد استقر قبل عودتهما .. فأطفال كريمة الثلاثة قد تعهدت بهم مربية خاصة وصارت لهم حجرات منفصلة في أبهاء الفيلا الواسعة، ينعمون فيها بكل ما يحتاجونه .. والأم العجوز صارت لها أيضا حجرتها المستقلة واثنان من الخدم يقومون على تلبية إشاراتها .. وطبيب خاص يداويها بالرعاية والعلاج.

عادت كريمة من رحلة شهر العسل شيئا آخر غير الذي كانته .. فالحزن يقتل والسعادة تُحيي .. ومن قبل كانت ميتة وهي حية .. والآن صارت تشعر بقيمة كل لحظة تمر بها وبجمال الحياة واتساعها .. فكل لحظة تمنحها سعادة فائقة وكل يوم يهبها هناء متجدداً. وجهها قد زايله شحوبه وتورد بحمرة صحة وسعادة طاغية .. وبدنها الهزيل قد عاود امتلاءه واستدارته فصار فاتنا شهيا .. وانمحت

عنه معالم شقاء سابق وآلام ماضية .. وبدت صاحبته كأنما ولدت تلك اللحظة. وُلدت تملك الدنيا كلها.

وقال لها مراد وهما يستقران في الفيلا الأنيقة الكبيرة : سوف آتي لك بخبيرة في التجميل والموضة والإتيكيت لكي تتعلمي كل شيء .. فأنا أريد منك أن تعوضي كل ما فاتك .. أريدك أن تتحولي إلى أجمل وأشيك وأرق امرأة في القاهرة بأكملها .. أريدك أن تصبحي نجمة حفلاتي وينبهر الجميع بجمالك وأناقتك.

وجاوبته كريمة بابتسامة تراقصت فوقها أفراح الدنيا .. ها هي كل أحلامها توشك أن تتحقق .. ما حلمت به وما لم يطف بخيالها فقط. لو أنها تمنت ما وصلت أمانيها إلى ذلك الحد.

وجاءت خبيرة التجميل التي كانت مهمتها أن تعلم كريمة كيف تختار أزياءها وتضع مساحيق التجميل .. أن تختار من الأحذية ما يناسب فساتين سهراتها وأن يكون لون حذائها متناسباً مع إكسسواراتها وأقراط أذنيها والعقد الماسي الملتمع فوق جيدها.

تعلمت كيف تختار من مساحيق التجميل وألوانها ما يناسب بشرتها ولون أهدابها .. تعلمت كيف تسير وتخطو مثل سيدات القصور .. متى تتحدث وأن تصمت.

وأظهرت كريمة قدرة هائلة على التعلم أدهشت من تقوم بهذه المهمة. وفي أسابيع قليلة كانت كريمة قد تعلمت كل شيء. كأنها كانت عمرها كله تنتظر تلك اللحظة، فلما أتت أخيرا اقتنصتها بكل إرادتها.

واندهش مراد .. كان عمله يأخذه بعض الوقت، ولكنه لم يسمح له أن يأخذه من كريمة كل الوقت.. وأدهشته السرعة البالغة التي تعلمت فيها فنون الإتيكيت وذوقها الرائع في اختيار فساتينها ومساحيق التجميل ..

وبدت كريمة مثل أميرة حقيقية قد عاشت عمرها تتلقى أصول الحياة الرغدة وأساليبها. وما أدهشه أكثر أنها بدأت تتعلم اللغة الفرنسية .. صارت لها معلمة خاصة تأتي لتلقينها أصول اللغة وقواعدها .. وكريمة تُبدي مهارة فائقة في تعليمها.

وخلال أسابيع قليلة راحت تطعّم أحاديثها ببعض عبارات

فرنسية رقيقة دون أن تخطئ في قواعدها .. حتى أن مراد هتف بها ذاهلا : إنني لا أكاد أصدق ما أرى .. ويخيل لي في بعض الأحيان أن كل تلك الأشياء التي تعلمتها كنت تعرفينها من قبل وأنها كانت تشكل جزءا أساسيا من حياتك، وليس أنك تعلمتها بهذه السرعة المذهلة ؟

فأجابته بابتسامة ساحرة : لقد منحتني الكثير من مالك وحبك وحياتك .. فليس أقل من أن أرد إليك بعضاً من جميلك فأكون زوجة تفخر بها أمام المجتمع الذي تنتمي إليه.

فعاد مراد يتأملها في إعجاب أقرب إلى الوله قائلاً : لو أنني رأيتك على تلك الصورة يوم أن تقدمت طالباً يدك، لما طلبتك للزواج أبداً.

فسألته في دهشة : ولماذا ؟

فأجابها : لأنني كنت سأخشى من أن فاتنة لها مثل جمالك ورقتك، سترفض دون شك شاباً مثلي عاطلاً عن أي ميزة غير المال.

فهمت وهي تحتضنه بعينيها : إن أي امرأة ترتبط بك هي امرأة سعيدة الحظ.

فقال وهو يطوقها بذراعيه : هؤلاء الرجال الثلاثة الذين تزوجوك من قبل.

سألته في لهجة حذرة :

ــ ما بهم ؟

أجابها سريعا :

ــ إنهم أغبى رجال في العالم لأنهم تركوك تضيعين من أيديهم، ولم يعرفوا حق قدرك.

فشاعت ابتسامة ثقة على وجه كريمة .. وبدت في العينين السوداوين مشاعر متناقضة تفيض بأسرار لم تفصح عن مكنونها بعد.

وحانت اللحظة المناسبة .. لحظة تقديم كريمة إلى مجتمع الأثرياء ونجوم مجتمع القاهرة ..

وأقام مراد حفلة خصيصا لذلك ..

وعندما ظهرت كريمة وسطهم أثارت ذهول الحاضرين

.. بفستانها الأسود المطرز بحبات الماس واللؤلؤ. وجيدها وذراعيها العاجيين يلمعان كأضواء البرق الخاطف .. ووجهها الفاتن قد تألق كشمس الظهيرة .. وشعرها الأسود الفاحم مضفّر على شكل تاج تتخلله حبات من الماس كأنما صاحبته أميرة حقيقية.

حملق الحاضرون في كريمة ذاهلين .. شهقوا لفرط جمالها .. ابتلعوا لعابهم في جحوظ وهم يتساءلون من أين أتى مراد بتلك الزوجة الفاتنة الساحرة كأنها أميرة إحدى الحكايات الخرافية، وأين أخفاها كل هذا الوقت ؟

وراحت كريمة تتنقل بين المدعوين توزع ابتساماتها، وهي تسيل أنوثة وعذوبة وتجامل الموجودين فتكاد تقتلهم بفتنتها ورقتها.

وعندما اندفع البعض إلى مراد يسألونه ذاهلين من تكون زوجته ومتى قابلها وأين، وكيف لامرأة بمثل ذلك الجمال الفاتن أن غفلت عنها الأعين إلى أن التقطتها أصابعه هو وحده؟

ولكنه لم يجاوبهم بغير ابتسامة غامضة لا تشفي غليلاً، وهو يخفي سعادة بالغة تتراقص في قلبه.

كانت نظرته إلى كريمة صادقة منذ اللحظة الأولى التي شاهدها فيها .. كانت جوهرة ملقاة وسط الوحل داستها أقدام ثلاثة رجال دون أن ينتبهوا الى الكنز الراقد في أعماقها.

وها هي قد حققت ظنه فيها .. وأعطته بقدر مضاعف لما أخذته منه.

كان يشعر بسعادة طاغية تلك الليلة .. لقد كان قلبه على حق في تمسكه بكريمة برغم كل ما كانت تبدو عليه من قبل .. وكل الظروف المعاكسة التي أحاطت بها. كانت جوهرة ثمينة.. ولم يكن له من فضل غير مسح الأقذار المحيطة بها، لكي يلمع ضوؤها لكل العيون.

وفي تلك الليلة لم يغمض لكريمة جفن. كانت سعادتها لا حد لها فقد نجحت في أول اختبار حقيقي لها وأول مواجهة مع ذلك المجتمع الأنيق المترفع الذي لا يعترف إلا بالجمال، ولا يتعامل إلا بالملايين.

نجحت في أن تكون شيئا مما حلمت به في أيام مراهقتها .. كان حلمها لو أنها وُلدت أميرة .. وعندما قال لها

مراد أنها أميرته أدركت أنه قدرها. وأنه الوسيلة التي سترفعها لأعلى لتحقق كل أحلامها أخيراً.

كانت تخطو إلى حياة جديدة ظنت أنها لن تتحقق لها أبداً .. وها هو القدر يثبت لها أنه قادر على كل شيء مهما بدا بعيداً أو مستحيلاً.

لم يعد هناك ما تخشاه من المستقبل وهي زوجة رجل أعمال شهير ومليونير .. عاشت عمرها كله تخاف من المستقبل .. والآن صار المستقبل هو ضمانها الأكيد. وبرغم ذلك فقد كانت سعادتها ناقصة في تلك اللحظة .. كان الماضي لا يزال ينهش قلبها .. فإنها لم تستطع أن تتخلص منه أبداً .. ولا كان بامكانها ذلك.

قال مراد لها لحظة المترافه بحبها : منذ هذه اللحظة ستمحين الماضي من ذاكرتك. ولكنه كان رجاء مستحيلاً. إنها لم تكن نادمة على كل ما جرى لها .. كانت فقط تشعر بالرغبة في الانتقام .. وكانت تلك الرغبة تعذبها وتدمي مشاعرها .. وتحرقها بنارها في كل لحظة .. وقد حانت لحظة الانتقام أخيرا.

فقد فشلت في أن تمحو الماضي من ذاكرتها.

« الانتقام هو قدري »

تساءل مراد في دهشة : تريدين افتتاح مشروع تجاري صغير ؟

أجابته كريمة وابتسامة رائعة تتألق بشفتيها : أريد شيئاً يشغلني بعض الوقت، فوقتي متسع وأنا بطبعي لا أطيق البقاء طويلاً في المنزل أو الذهاب إلى النادي.

ــ هناك الكثير من صديقاتك من زوجات أصدقائي، يمكنهن أن يشغلن وقتك.

مطت كريمة شفتيها باستياء : إنهن تافهات لا هم لهن غير الثرثرة والحديث عن أحدث خطوط الموضة والخوض في سيرة الغائبات.

تطلع مراد إليها في حيرة قائلاً : ولكن لا خبرة لك في التجارة.

زادت ابتسامتها الفاتنة اتساعا وهي تجيبه : سأتعلمها كما تعلمت أشياء كثيرة أخرى كنت أجهلها.

فحدّق مراد نحوها في صمت .. كانت رغبتها تبدو محيرة بالنسبة له، وتساءل: هل تريد حقاً شغل فراغ وقتها، أم أنها تتطلع لتأمين مستقبلها معه ببعض المال خوفاً من تكرار تجربة قديمة لا تزال جراحها قائمة في قلبها ؟

وتطلع إلى عينيها يبحث عن إجابة لسؤاله، فجاوبته العينان السوداوان بنظرة عميقة تغلفها أسرار مجهولة لا نهاية لها.

ووافق مراد .. واستأجر شقة فاخرة بوسط العاصمة لتفتتحها كريمة كشركة للاستيراد والتصدير، وقام بتعيين عدد من الموظفين الأكفاء في الشركة لتسيير أمورها.

وعند الإعلان عن طلب سكرتيرة خاصة تقدمت العشرات .. ولكن كريمة اختارت واحدة منهن اسمها إيمان. كان فستانها رخيصا وحليها مقلدة وحذاؤها وشك على البلى، وحاجتها الشديدة إلى الوظيفة واضحة، وكانت هي المناسبة تماما لما تنويه كريمة.

وقالت كريمة لسكرتيرتها الجديدة : كل ما أريده منك

هو الإخلاص .. الإخلاص لي وحدي .. هل تفهمين ذلك ؟

أجابتها الفتاة ومرارة الاحتياج والحرمان تطل من عينيها : سأكون رهن إشارتك.

ــ أين كنت تعملين من قبل ؟

ــ عملت سكرتيرة في أكثر من شركة تجارية ولي خبرة كبيرة بهذه الأمور.

ــ ولماذا تركت العمل بهذه الأماكن من قبل ؟

شحب وجه ايمان وقالت في صوت أقرب إلى الهمس : إن بعض أصحاب الشركات الخاصة يتصورون دائما أن من ضمن عمل السكرتيرة تقديم بعض التنازلات .. وأنا فتاة .. ليس للفتاة غير سمعتها حتى لو خسرت وظيفة ومرتباً مضموناً هي في أشد الاحتياج إليه.

ضاقت عينا كريمة دون أن تعكسا أي مشاعر وقالت : وما المرتب الذي تتوقعينه من هذه الوظيفة ؟

كادت الدموع تطفر من عيني إيمان، وهربت بنظراتها وهي تجيب في مذلة : سأكون شاكرة لك لو لم يقل

مرتبي عن مائة وخمسين جنيها في الشهر .. فهناك التزامات عائلية ولي إخوة صغار وأم مريضة و .. قاطعتها كريمة في صوت بارد ناعم قائلة : سأمنحك خمسمائة جنيه شهريا !

حملقت الفتاة فيها ذاهلة لا تكاد تصدق .. وواصلت كريمة قائلة بنفس الصوت الناعم : وأنا مستعدة لمضاعفة مرتبك حسب درجة إخلاصك لي.

هتفت إيمان في فرحة جنونية : سأكون مستعدة لأن ألقي بنفسي في أتون مشتعل لو أنك أمرتني بذلك.

ضاقت عينا كريمة وتقوّس حاجباها وهي تقول : حسنا .. أنا لا أرضى بأقل من ذلك .. وبالطبع لن تكون هناك اية مضايقات من النوع الذي صادفته من قبل .. وبذلك لن يكون هناك ما يدعوك لترك العمل معي.

وألقت اليها برزمة نقود قائلة : هذا مرتب شهرين مقدماً .. أريدك أن تشتري بعض الملابس الجديدة المناسبة لعملك معي .. ولتبدئي العمل منذ الغد.

فاختطفت الفتاة النقود متلهفة كأنها تخشى أن تتراجع

سيدتها في قرارها. وراقبتها كريمة في صمت وتقطيب، فقد كانت تعرف ماذا تعني النقود بالنسبة لفتاة فقيرة لا عائل لها وفي أشد حالات الاحتياج، فما أقسى ما عانت بسبب ذلك من قبل. وفي اليوم التالي عادت إيمان في فستان أنيق وحذاء جديد. وقد صففت شعرها فبدت أكثر جمالا ورقة، بعد أن تورد وجهها الشاحب قليلاً.

أشارت لها كريمة أن تجلس أمامها، ومالت إليها تقول : هناك شركة للاستيراد والتصدير اسمها شركة « الجواد الرابع » .. هل لديك أي معلومات عنها ؟

لمعت عينا إيمان وقالت بسرعة : نعم .. إنها من أكبر شركات الاستيراد والتصدير في مصر ونشاطها متنوع ورأسمالها لا يقل عن مليوني جنيه.

ارتسم تعبير بالغ من الحرص في عيني كريمة وهي تسأل إيمان : وصاحبها .. هل تعرفينه ؟

أجابت السكرتيرة بلهجة تقريرية تفيض بالإخلاص : « كريم بك الدمراني » .. من أشهر رجال الأعمال في مصر.. يقولون أن ثروته تتجاوز العشرين مليون جنيه..

رجل تجاري لا مكان للرحمة في قلبه، خاصة أمام منافسيه، فقد تسبب في إفلاس بعضهم عندما دخل معهم في أكثر من منافسة.

وصمتت لحظة في ارتباك ثم أضافت : إن هناك شائعات كثيرة بخصوصه، فهناك من يقولون أنه يتاجر في الممنوعات وهناك من يقول إنه يقوم بتهريب بضاعته من الجمارك ويتهرب من الضرائب، ولكن الشرطة لم تستطع إثبات أي شيء ضده فهو رجل شديد الحذر.

مالت كريمة بمقعدها للخلف وهي تقول. حسنا .. أنا أرغب في التعامل معه .. يمكننا أن نستورد من خلاله شحنة معلبات غذائية لحسابنا، ويكون هو وكيلنا في الاستيراد، والمسؤول عنها مسؤولية كاملة حتى لحظة وصولها مخازننا.

شحب وجه إيمان وقالت : ولكنه رجل خطر.

لمعت عينا كريمة بذلك التعبير الطافح بالغموض والأسرار، وقالت ونظراتها تشرد بعيداً : ومن قال بأنني امرأة .. ليست خطرة أيضا ؟

فصمتت إيمان وقد اعتراها خوف غامض لا تدري له سببا.

وخلال أيام قليلة تمت الصفقة .. وقال كريم الدمراني لإيمان وهو يوقع أوراق الصفقة معها : كنت أظن أن سيدتك ستأتي للتوقيع بنفسها على الصفقة.

ـــ لا تنسى أن معي توكيلا منها يا كريم بك.

ـــ يقولون أنها فاتنة الحسن لا مثيل لجمالها.

ـــ يوما ما ستراها .. ثق من ذلك.

ونهضت متسائلة : متى ستصل الشحنة إلى القاهرة ؟

ـــ سأتصل بوكيلي في « الأرجنتين » ليقوم بإجراءات شحنها خلال هذا الأسبوع، وأتوقع وصولها خلال شهر.

ـــ هذا حسن .. وداعا.

وأخبرت إيمان سيدتها بتفاصيل ما جرى مع كريم بك، فتألق وجه كريمة بابتسامة فاتنة وهي تقول : هذا رائع .. إن العمل يسير على ما يرام.

ـــ هل هناك ما يمكن أن أقوم به أيضا ؟

ـــ سأخبرك عندما يحين الوقت .. فقط علينا الانتظار قليلا الآن .. وأريد منك أن تعدي لي قائمة بأسماء موظفي المَخازن لدى كريم بك.

فأومأت إيمان بالموافقة في صمت دون سؤال.

وبعد خمسة أسابيع دق جرس التليفون في مكتب إيمان .. وجاء صوت مدير أعمال كريم بك يقول لها : لقد وصلت بضاعتكم بالأمس وهي في مخازننا .. ويمكن لشركتكم أن تقوم باستلامها غداً.

وبعد دقائق نقلت إيمان إلى كريمة نبأ وصول البضاعة .. وقبل أن تمر ساعة واحدة كان رجال الشرطة يقتحمون منزل كريم بك ويوقظونه من نومه، فاندفع إليهم غاضبا وهو يقول : كيف تقتحمون منزلي بمثل هذه الطريقة ؟

ـــ معنا أمر من النيابة بالقبض عليك.

فتساءل في دهشة :

ـــ ماذا .. ما هي التهمة ؟

ـــ سوف تعرف في النيابة .. ويمكنك أن تستدعي

محاميا فسوف تحتاج إليه.

وفي مبنى النيابة قال له وكيل النيابة:

ـــ لقد ضبطنا شحنة معلبات وصلت أمس مخازنك مليئة بالمخدرات وقد أرشدتنا إليها مكالمة من مجهول.

فغمغم كريم ذاهلا : مستحيل .. ليس لي أي علاقة بالمخدرات أو تهريبها .. إن هذه الشحنة قادمة لحساب شركة « المراد » للتصدير والاستيراد ويمكنكم أن تسألوا صاحبتها.

ـــ إن البضاعة مستوردة باسمك ولم تغادر مخازنك فأنت المسؤول قانونياً.

فنظر كريم في ذهول إلى محاميه، فجاوبه الأخير بنظر يائسة.

وأنهى وكيل النيابة الاستجواب بأمر بحبس كريم بلـ على ذمة التحقيق، واقتاده رجال الشرطة إلى السجن فبد وكأنما أصابته لوثة عقلية وهو يصرخ : أقسم لكم أنني بريء .. ليست لي أي علاقة بالمخدرات ولا بد أن أحـ أعدائي قد دسها لي .. إنني أعترف بتهريب بضائعي مـ

الجمارك والتهريب من الضرائب ولكنـي لست مهـرب مخدرات .. لست مهرب مخدرات وأقسم لكم.

وجاءت المحاكمة سريعة .. وفي قاعة المحكمة كانت هناك امرأة فاتنة بنظارات سوداء أخفت نصف ملامح وجهها وقد راحت تستمع إلى المحاكمة الدائرة أمامها، دون أن تفصح ملامحها عن أي مشاعر .. وعندما نطق القاضي الحكم بالسجن المؤبد على كريم ومصادرة كل أمواله .. شاع في وجه الفاتنة ذات النظارات السوداء نظرة سعادة لا حد لها، وانفجر كريم صارخا ورجال الشرطة يدفعونه خارجاً نحو سيارة السجن، واقتربت منه المرأة ذات النظارات السوداء وخلعت نظارتها وهتفت به : ترى ألا زلت تذكرني يا كريم بك بعد كل تلك السنين الطويلة ؟

حدق كريم فيها ذاهلا وسألها : من أنت ؟

فأجابته بلهجة تفيض بالتشفي وغليل الانتقام : أنا صاحبة شركة « المراد » وأسمي « كريمة أبو اليسر » .. ترى هل يذكّرك هذا الاسم بشيء خاص عمره خمسة عشر عاما ؟

ضاقت عينا كريم في ذهول وعدم تصديق .. وبدا

نه يسترجع ذكرى بعيدة باهتة كادت ملامحها تُطمس من ذاكرته .. وغمغم في ذهول وهو على وشك الانهيار :

كريمة أبو اليسر .. أنت .. مستحيل ؟

أجابته في صوت بارد كالثلج ينضح بالكراهية : لا مستحيل في هذه الدنيا .. لقد قمت أنت بتزوير أوراق ملكية أخيك لإرثه قبل موته واستوليت على ثروته فحرمتني أنا وطفلته من هذا المال وتركتنا للفقر والاحتياج وذل الحرمان .. والآن كان عليك أن تدفع الثمن مضاعفا من مالك وحريتك.

جن جنون كريم وهو يصرخ : أنت .. هل أنت من فعلت ذلك بي ؟

أجابته ساخرة : كان الامر أبسط مما تظن .. مجرد رشوة صغيرة لأحد موظفي مخازنك فاستبدل عدداً من صناديق المعلبات بأخرى تحتوي على المخدرات .. لقد كلفتني المسألة بعض المال ولكن المقابل كان رائعا وأنا أراك تقضي بقية عمرك في السجن ومالك كله يضيع منك .. هذا المال الذي استوليت عليه زوراً وحرمت منه طفلة يتيمة بريئة وأمها المسكينة.

وقهقهت كريمة وهي تعيد نظاراتها فوق عينيها وتغادر المكان .. وصرخ كريم في جنون .. ولكن صرخاته ضاعت وسط ضجيج بقية المساجين وهم يُقادون إلى سيارة السجن وسط دفعات الحراس ولطماتهم.

« الرجل الثاني »

سأل الشاب الذي يحمل حقيبة أدواته، بستاني الفيلا: هل هذه هي فيلا مراد بك الحسيني؟

ــ نعم هي .. هل أنت عامل السباكة ؟

ــ نعم أنا الأسطى فتحي.

ــ إذن أسرع إلى الداخل فقد كُسرت ماسورة الحمام الرئيسية.

خطا الشاب إلى الداخل حاملاً حقيبته الجلدية القديمة، كان عمره لا يزيد عن الثانية والثلاثين غير أن الهالات السوداء تحت عينيه والشعر الأشيب في فوديه أضافا سنوات إلى عمره. أما أصابعه الخشنة الجافة فنمَّت عن شقاء مهنته .. ودلت ارتعاشة الاصابع على آن صاحبها مقامر محترف.

واستقبلته ايمان في الداخل فتطلع اليها في نهم يدل

على طبيعة خسيسة، فتجاهلت ايمان نظراته وقادته إلى غرفة الحمام، وأشارت إلى ماسورة السقف المكسورة قائلة : ها هي الماسورة المكسورة التي استدعيناك لاصلاحها .. عليك باصلاحها فوراً.

فتأمل فتحي الماسورة المكسورة وقال متعجباً : كيف كُسرت هذه الماسورة العريضة .. إن الأمر يبدو وكأن شخصاً كسرها متعمداً بآلة حادة ؟

أجابته إيمان مقطبة : هل جئت لإصلاحها أم للتحقيق في سبب كسرها ؟

فلمعت عينا فتحي في جشع قائلاً : لنتفق أولاً على الأجر .. سآخذ خمسين جنيها.

أجابته إيمان بمكر أنثى :

ــ بل مائة إذا أصلحتها جيدا !

حدق فتحي في إيمان بدهشة، ثم ابتلع لعابه وارتسمت ابتسامة خبيثة على وجهه وقال : هذا يجعلني أضاعف جهدي.

وانهمك في اصلاح الماسورة وإيمان تراقبه في صمت،

والتفت إليها قائلاً : أنتم تسكنون في « جاردن سيتي »، فلماذا لم تستدعوا سباكا قريبا وأرسلتم من يستدعي سباكا يقيم في حي شبرا البعيد ؟

ـ هذا لأن هناك صديقة لصاحبة الفيلا تسكن في شبرا استدعتك ذات مرة لإصلاح حمامها وأثنت على براعتك .. فرأت صاحبة الفيلا استدعاءك.

فقال فتحي مبتهجا : ليس للعامل منا غير سمعته .. وليس هناك من هو أمهر مني في أمور السباكة في « شبرا » بأكملها.

ودق على صدره بيده مؤكدا عبارته في فخر.

تساءلت إيمان في فضول : لقد كنت أظن أن المحل الذي استدعيناك منه ملك لك.

بان الارتباك على فتحي وقال : لقد .. لقد كان ملكي واضطرتني بعض الظروف الخاصة لبيعه والعمل فيه كأجير .. ولكنني سأشتريه ثانية بإذن الله عندما تتحسن الظروف.

ـ هل أنت متزوج ؟

ـ ثلاثة !

قالها فتحي وهو يحدق في إيمان بشدة، كأنما يعرض عليها أن تكون رابعتهن.

وبعد دقائق انتهى من اصلاح الماسورة ووقف يفرك يديه مسروراً وهو يقول : لقد انتهيت من الإصلاح .. إنني ماهر كما ترين ويمكنكم أن تستدعوني في أي وقت تشاؤن.

ـ سآتيك بأجرك حالاً.

وقادته إيمان إلى الصالة العريضة الفاخرة وقالت له : انتظرني لحظات فسآتي بأجرك من سيدة الفيلا.

وغابت عنه فوقف فتحي يتأمل الأثاث الفاخر وهو يتلّع لعابه، وغمغم لنفسه قائلا : لو أنني تزوجت امرأة بذلك القدر من الثراء .. لأغنتني إلى الأبد عن الحاجة إلى العمل.

وفجأة جحظت عيناه عندما وقعت على ذلك الشيء الملقى فوق السجادة العريضة أسفل أحد مقاعد الصالون بحيث كان الضوء المنعكس منه يخلب الأبصار ..

كان عقداً ماسياً يساوي عشرات الآلاف، ولم يكن

هناك من شك في أنه سقط من صاحبته مالكة الفيلا دون أن تنتبه له.

وبدون تفكير امتدت أصابع فتحي تلتقط العقد في أنفاس لاهثة لتدسه في جيبه وهو يتلفت حوله في حذر ويحاول كتم انفعاله .. لقد جاءته الثروة على غير توقع.

ولم يكن من الغباء ليغادر المكان فوراً .. وانتظر حتى أتت السكرتيرة بأجره فاختطفه منها ثم أسرع يغادر الفيلا وهو يسابق الريح.

وهرع إلى محل صائغ يعرض العقد الماسي للبيع .. وفي نفس اللحظة كان رجال الشرطة ينقضون على محل الصائغ ليلقوا القبض على فتحي الذي انقاد إليهم مذهولا، وهو لا يعرف من الذي أبلغ عنه ولا كيف اهتدت الشرطة إلى مكانه بتلك السرعة.

وفي قسم الشرطة سأله الضابط : من أين سرقت هذا العقد الماسي ؟

فهتف فتحي وهو يحلف بأغلظ الأيمان : لقد عثرت عليه في الطريق.

فجذبه الضابط من ياقته في عنف قائلاً : أيها الكاذب المحتال، لقد سرقته من فيلا « بجاردن سيتي » استدعاك أصحابها لإصلاح حمامها .. ولحسن الحظ أن سكرتيرة صاحبة الفيلا شاهدتك وأنت تسرق العقد الماسي فأسرعت خلفك وعندما شاهدتك تدخل محل صائغ لبيعه أبلغت عنك.

صرخ فتحي : لا .. إن أحداً لم يرني وأنا أسرق .. هذه السكرتيرة كاذبة فقد عثرت على هذا العقد فوق سجادة صالون الفيلا ولم أسرقه.

أجابه الضابط ساخراً : كونك أخذته من مكانه أيا كان هذا المكان واحتفظت به فهو ما يعتبره القانون سرقة.

وهب الضابط واقفا للشخص الذي خطا داخل المكان وقال مرحباً : تفضلي يا كريمة هانم .. لقد أمسكنا باللص الذي سرق العقد الماسي من فيلتك.

التفت فتحي نحو صاحبة الفيلا مستعطفاً لتسامحه .. ولكن ما كادت عيناه تقعان عليها حتى جمد في مكانه.

كان التشابه عجيباً .. بل مذهلاً .. ولكن شتان الفارق

بين الاثنين .. مستحيل أن تكون هذه المرأة الأنيقة الفاتنة الثرية هي نفسها كريمة التي تزوجها منذ سنوات واستولى على مالها ثم ألقاها في الطريق مع ابنها منه. مستحيل أن تكون هي نفسها ولو كان لها نفس الاسم والملامح. الأخرى كانت امرأة بائسة هزيلة محطمة .. والواقفة أمامه إمرأة رائعة الحسن فيها كبرياء لا مثيل له وحليها تدل عن ثراء لا حدود له.

وقالت كريمة ساخرة : كيف حالك يا أسطى فتحي .. من المؤسف أنك اضطررت لبيع دكانك بعد أن بعت كل ما تملكه زوجاتك للإنفاق على القمار.

تساءل الضابط بدهشة : هل تعرفينه ؟

أجابته كريمة وعيناها تومضان ببريق التشفي :

إنها معرفة قديمة .. فقد كانت لهذا الرجل زوجة أعرفها، استولى على مالها القليل وباع أثاث بيتها ثم اتهمها بالسرقة لكي لا يدفع نفقة لها وكاد يذهب بها إلى السجن .. لولا أنها تنازلت عن النفقة التي طالبته بها والآن ها هو يذهب إلى السجن بتهمة السرقة، ولكنها تهمة حقيقية وليست زائفة.

تراجع فتحي للوراء وقد شعر أنه تلقى لطمة ساحقة .. لم يكن هناك شك في أن المرأة الواقفة أمامه هي نفسها زوجته السابقة.

كان الأمر أقرب إلى الجنون ولكنه كان واقعاً حقيقياً .. فالقدر الذي جعله يبيع كل ما يملك ويصير عاملا في المحل الذي كان ملكه هو نفسه الذي دفع بكريمة لأعلى لتصبح تلك المرأة المبهرة الثرية التي تتهمه بسرقة عقدها الماسي الثمين.

وفي تلك اللحظة فقط أدرك سر الماسورة المحطمة عمداً وسر استدعائه من « شبرا » ليصلح ماسورة فيلا في حي « جاردن سيتي »، والعقد الماسي الملقى عمداً في الصالة لكي يعثر عليه ويخفيه ويهرب به من الفيلا لكي يُتهم بسرقته بعد ذلك.

وصرخ فتحي في جنون : إن هذه المرأة تكرهني .. لقد دبرت الأمر لكي تتهمني بالسرقة .. إنها من ألقت العقد الماسي أمامي لكي أسرقه .. لقد دفعتني إلى ذلك.

فأجابه الضابط في حدة : لقد اعترفت حالاً بأنك أخذت

العقد من الفيلا وهو ما يمثل سرقة في نظر القانون، أما الأشياء الأخرى فلا يعرفها القانون.

وأشار لرجاله فانقضوا على فتحي يكبلون يديه ويقودونه إلى حجرة الحجز.

« اكتشاف متأخر »

التفتت كريمة إلى سكرتيرتها متسائلة : هل فهمت الخطوة التالية ؟

أومأت إيمان برأسها موافقة بوجه شاحب وارتعادة في أصابعها حاولت إخفاءها وهي تقول : نعم يا سيدتي .. لقد صار لشركة « الأهرامات » تعاملات معنا وربحوا من ورائنا الكثير، ولن يغامروا برفض طلبنا برفد أحد سائقي شاحناتهم، وخاصة أنه يثير لهم المتاعب ويسرق بنزين السيارة التي يعمل عليها.

— وبعدها ؟

— إعلان صغير عن طلب سائقي سيارات نقل في الجرائد، ونرجو أن يتقدم له هذا السائق المفصول، وإذا لم تفلح هذه الوسيلة فسأدبر غيرها.

ـــ أنت رائعة يا إيمان .. وقد حان أوان مضاعفة مرتبك.

غادرت السكرتيرة المكان دون أن تنطق. وبقيت كريمة فوق مقعدها تحدق في فراغ الحجرة. ها هو انتقامها الأخير يوشك أن يتحقق لكي تهدأ نيران انتقامها إلى الأبد، ولكي يموت ذلك الماضي الذي تعذبت به كثيرا وتنسدل ستائره أخيراً.

ولكن الماضي لن يموت إلا بانتقامها من رمضان .. زوجها السابق وثالث الثلاثة. ولأن لغة المصالح هي الأقوى، لذلك فبعد يومين فقط كان رمضان مطروداً مهاناً من الشركة التي خدمها لسنوات طويلة.

وهدد رمضان وثار وأرغى وأربد ولكنه في النهاية غادر المكان ذليلاً مطأطئ الرأس.. ولم يصدق أذنيه عندما اتصل به زميل له في الشركة التي فصلته ليخبره بأن شركة صديقة لهم نشرت إعلاناً تطلب سائقي نقل ذوي خبرة، وطلب منه سرعة التقدم للفوز بالوظيفة قبل أن يسبقه أحد آخر إليها.

وفي الصباح التالي كان رمضان يملأ استمارة طلب تعيين في شركة كريمة. وأدهشه أن الموظف المختص

بقبول طلبات السائقين ما أن قرأ أسمه حتى ظهر عليه ابتهاج حاول إخفاءه، وغاب قليلا ثم عاد وطلب منه أن يقابل سكرتيرة الشركة. واستقبلته إيمان في مكتبها مرحبة قائلة : إن خبرتك السابقة ترشحك لشغل الوظيفة الخالية لدينا فورا.

فتساءل رمضان في شك : ولكني رأيت سائقين آخرين تقدموا معي لنفس الوظيفة، بعضهم أكثر خبرة مني، فلماذا اخترتموني أنا بالذات ؟

اتسعت ابتسامة إيمان وقالت : ولكن أحداً لم يوصى عليهم مثلك.

تساءل بدهشة : وأنا من أوصى علي ؟

أجابته إيمان في لهجة ناعمة : إنه صاحب الشركة الأخيرة التي كنت تعمل فيها .. فقد اتصل بنا راجياً أن نقبلك للعمل لدينا لأنه أحس بالذنب لأنه قطع عيشك فجأة ..

ظهرا الارتياح على وجه رمضان وقال : هذا رائع .. سوف أجرب العمل لديكم وأرجو أن يعجبني.

أجابت إيمان بلهجة خاصة : ثق أنك لن تعمل في أي شركة أخرى غيرنا بعد اليوم .. سوف نضاعف لك مرتبك عما كنت تحصل عليه في شركتك السابقة.

فتهلل وجه رمضان وقال : هذا حسن جداً .. إنني مستعد للعمل منذ هذه اللحظة.

ــ وهناك بالفعل شحنة خضراوات معدة للتصدير ومحملة في إحدى شاحناتنا، وسيكون عليك قيادتها إلى ميناء السويس ثم العودة بالسيارة فارغة في المساء.

ومدت إيمان يدها بمفاتيح السيارة قائلة له : إن الشاحنة تنتظر بالأسفل أمام مقر الشركة.

فسألها : ألن أخذ مبلغاً تحت الحساب ؟

فناولته إيمان مائتي جنيه اختطفها في جشع وهو يفكر في أنه إذا استطاع سرقة بعض حمولة الفاكهة في الشاحنة وبيعها في الطريق فربما يحصل على مائتي جنيه أخرى.

وعندما هم بمغادرة مقر الشركة توقف لحظة في دهشة بالغة عندما لمح جانباً من وجه إمرأة رائعة الحسن في فستانها الحريري الأنيق وقفازها الأبيض التي مرت من أمامه

كطيف دقيق واختفت داخل مكتب فاخر بالشركة، لم يكن شك أنه مكتب صاحبة الشركة. كانت المرأة تشبه زوجته الأخيرة كريمة شبها عجيبا .. نفس الملامح والقوام وطريقة المشي.. ولكن تلك المرأة التي شاهدها منذ لحظات كانت تبدو كأميرة متوجة ومن دنيا أخرى غير التي تسكنها كريمة.

صحيح أن كريمة اختفت مع أمها وأطفالها من الحارة ولا أحد يعرف عنهم شيئاً منذ تلك اللحظة.. غير أنه من المستحيل أن تكون هي نفس المرأة، فلا مكان للمعجزات في هذا العالم.

وهز رأسه في سخرية واستقل السيارة الضخمة المحملة بصناديق الخضراوات .. كانت الشاحنة قديمة خشنة ولكنّ رمضان كانت له خبرة كبيرة بمثل ذلك النوع من السيارات، فقادها في أنحاء العاصمة متجها إلى طريق المطار ومنه إلى طريق السويس الصحراوي حيث تسير السيارات القادمة والمغادرة في طريق واحد لا يفصلهما حاجز. وضغط على بنزين الشاحنة ليمنحها أقصى سرعة. ومن بعيد ظهرت شاحنة أخرى ضخمة وهي تطلق أضواءها لتفسح لها سيارة النقل الطريق.

كانت سيارة رمضان قزما ضئيلا بالنسبة للشاحنة القادمة من الاتجاه العكسي، فضغط فوق فرامل سيارته ليهدئ من سرعتها.. ولكن ضغطه لم يؤثر في شيء وواصلت سيارته اندفاعها الرهيب.

وعاود رمضان ضغطه على دواسة الفرامل في ذهول دون أي رد فعل، وفي الحال أدرك الحقيقة الرهيبة. كانت فرامل السيارة مقطوعة ولم يكن بها غير خيوط قليلة بالكاد قادته حتى خرج من العاصمة قبل أن تتقطع تماما.

وفي الحال قفزت إلى ذهنه صور عديدة .. شركته التي فصلته من عمله بدون سبب بالرغم من مشاكل عديدة سابقة لم يفصلوه بسببها. والشركة الأخرى التي قبلته فورا للعمل بها، وقول السكرتيرة له : ثق من أنك لن تعمل في شركة أخرى بعد اليوم ! وأخيراً تلك المرأة التي لها ملامح كريمة وفستانها الحريري الثمين .. وأوضحت له تلك الحقائق عن السر الذي انجلى لعينيه فجأة، فصرخ في رعب وهلع عندما أدرك الحقيقة كاملة.

ثم وقع الاصطدام الرهيب !

« رصاصة في القلب »

تقدمت إيمان من سيدتها الجالسة في الشرفة الواطئة بحديقة الفيلا الواسعة، وقد بدت كريمة أشبه بشبح جالس في الظلام وعيناها شاردتان ساهمتان .. وأقبلت إيمان نحوها تجرجر قدميها، لا تكاد تقوى على الوقوف وهي تجاهد لتكبت دموعاً حبيسة تكاد تنفجر من مآقيها.

وتوقفت أمام سيدتها وحدقت فيها وقد أصابها الخرس. وبذلت مجهوداً جباراً لتقول لها : لقد تم كل شيء كما خططت له سيدتي .. وأصيب ذلك السائق ونقلوه إلى المستشفى مُحطماً بين الحياة والموت.

ولم تحتمل أن تقول أكثر مما قالت فأجهشت بالبكاء، بدت لها جريمتها هائلة لا يمكن غفرانها أبداً. لم تكن تتصور أن الفقر والعوز قد يدفعانها لتصبح شريكة في أي نوع من الجرائم مهما كانت مبرراتها.

وانفجرت فيها كريمة صارخة : لماذا تبكين أيتها الغبية .. اننا لم نظلم أحداً فهذا المجرم قد حل فرامل سيارة إنسان بريء دون ذنب قاصداً قتله، ولم نفعل أكثر من أننا عاقبناه بنفس الشيء .. أليس هذا هو العدل .. لقد كان يستحيل أن يتمكن إنسان من إدانته بأي تهمة ولكن العدل كان يقتضي عقابه بنفس الطريقة.

زاد بكاء إيمان وهي ترتجف كقصبة في مهب الريح، فعلا صياح كريمة وهي تواصل : وذلك اللص الذي سرق العقد الماسي .. لقد ذهب إلى السجن لأنه لص وسارق ولم يزيف له أحد الجريمة أو الاتهام، أما هو فكان مستعدا لارسال امرأة وحيدة مسكينة بريئة إلى السجن بتهمة السرقة لأنها طالبته بحقها الشرعي في نفقتها، فليس عدلاً أن يُعاقب بنفس الشيء .. وذلك الغبي الثالث الذي كان يمتلك الملايين مما لا يستطيع إنفاقه بقية حياته، لقد كان يقوم بالتهريب والتحايل على القوانين وعجز القانون عن ملاحقته وإيجاد أدلة لإدانته، تماماً كما عجزت إمرأة وحيدة مسكينة ذات يوم في أن تستعيد منه ميراث طفلتها الذي حصل عليه بالتحايل والتزوير، أفليس من العدل أن يلاقي

عقابه على كل تلك الجرائم ؟

إندفعت إيمان جارية تجهش بالبكاء وصيحات كريمة تلاحقها في صوت هيستيري : لقد انتقمت منهم جميعاً ليهدأ قلبي ويستريح وتنطفئ النار المشتعلة فيه كل هذه السنين.

وانطلقت مقهقهة بصوت عال .. أخيرا تم انتقامها وباحت عيناها بسرها وغموضها .. فمنذ سنوات وتلك الرغبة في الانتقام تسكن قلبها وعقلها وتنفجر في عينيها .. الرغبة في أن تنتقم لنفسها .. لضعفها وانكسارها وذلها. تنتقم ممن أذلوها وأهانوها واغتصبوا حقوقها، ولو لم يكن القدر راغباً في انتقامها ما أرسل إليها مراد ليحبها ويتزوجها ويمنحها من الوسائل ما يمكنها من الانتقام .. لقد كانت مجرد وسيلة في يد القدر فأي إنسان يمكن أن يلومها ؟

وواصلت قهقهتها .. ثم تلاشى صوتها وتحوّل إلى نحيب ونشيج مكبوت عندما طاف بذهنها تساؤل وقلبها يدق كقرع الطبول، ترى ماذا سيقول مراد إذا ما عرف حقيقة ما فعلت، هل سيكرهها، هل سيموت حبها في قلبه، هل

سيظنها ذئبة لم تتزوج منه إلا سعيا للانتقام، هل سيطردها من حياته ؟

وصرخت في فزع .. كانت تتحمل أي قسوة أو ألم في العالم إلا أن يطردها مراد من حياته أو يكرهها ويحتقرها .. لقد كانت تحبه. تحبه أكثر مما أحبت أي شيء آخر في هذا العالم .. أكثر مما أحبت أمها وأبناءها، بل أكثر من حبها لنفسها.

شيء آخر كانت تحبه بنفس القدر ولا تقدر على الهرب منه .. وهو رغبتها في الانتقام. وتساوى الاثنان في قلبها .. وها هي قد أكملت انتقامها ولا تستطيع أن تترك مراد أو تتخلى عنه، وعليها أن تفعل المستحيل لتحافظ عليه، وليبقى انتقامها سراً مطوياً لا يعرفه إنسان. إنها تموت لو أنه كرهها او احتقرها لحظة واحدة، فما البال لو أنه طردها من حياته بأكملها ؟

وطافت صورة إيمان بذهنها فارتعدت في عنف، وذلك الخاطر القاتل يطاردها، ماذا لو أن إيمان ذهبت إلى مراد وأخبرته بكل الحقيقة ؟

وانتفضت عندما شاهدت مراد في نفس اللحظة يدخل من باب الفيلا ويدنو إليها باسماً .. شهقت وأسرعت إليه تتشبث بأصابعه وتعانق عينيه برموشها، فسألها مندهشا : كريمة .. ماذا بك ؟

همست في شجن : أحبك .. أحبك .. أحبك .. أفي ذلك شيء غريب .. إن حبي لك هو الشيء الحقيقي المؤكد في حياتي .. أقسم لك بذلك.

بدهشة تساءل : لم أطلب منك قسماً .. أُصدقك دون قسم فلماذا تقسمين ؟

قالت وهي على وشك البكاء : هل تعدني ألا تظن بي السوء إذا ما سمعت عني أشياء لا ترضيك من الآخرين ؟

في دهشة وحيرة سألها : أشياء .. ما هذه الأشياء ؟

لم ترد على الفور .. أدركت أنها أوقعت نفسها في مأزق .. هربت بعينيها تبحث عن ملجأ تلوذ به .. في نفس اللحظة لمحت ذلك الشبح المختفي وراء سور الحديقة في قلب الظلام. ولمحت ذلك الشيء المعدني الملتمع في يده.. وعينيه اللتان تومضان ببريق الإنتقام الوحشي

فتتألقان كلهب نار محرقة وسط الظلام.

كان هو كريم الدمراني، وكانت ملابسه وهيئته المشوشة وملابسه الرثة الممزقة تدل على أنه مطارد من العدالة، وأنه قد هرب من السجن وجاء يسعى إليها .. يسعى إلى الانتقام .. وصرخت كريمة في هلع .. وفي نفس اللحظة دوى صوت الرصاصة فكتمت صرختها واستقرت في صدرها.

« طائر الليل الحزين »

ترنحت كريمة لحظة وسقطت فوق مراد الذي أصيب بالذهول وعقله لا يستطيع استيعاب العلاقة بين صوت الرصاصة القريب وزوجته التي ارتمت فوقه دون حركة .. وعندما مست أصابعه الدم المتدفق من صدرها اتسعت عيناه ذهولاً وصرخ فيها.

ـــ كريمة .. لقد أصبت .. لقد أصابتك الرصاصة.

وشاهد حركة شخص يعدو خلف سور الفيلا فهتف صارخاً في جنون : القاتل .. إنه هناك .. أمسكوا القاتل.

ولكن أصابع كريمة مست أصابعه تتشبث بها وهمست تقول له : لا تتركني.

قال في لوعة : القاتل .. يجب القبض عليه ونقلك إلى المستشفى حالاً .. أنت في حالة خطرة.

همست تقول له في شحوب وإعياء : دعه يهرب .. لن يفيد القبض عليه إلا في فضيحة لك بعد أن تنكشف الحقيقة .. دعني أموت في هدوء دون أن أسبب لك المزيد من المشاكل .. لقد تبقت في حياتي لحظات قليلة فدعني أقضيها معك قبل أن أموت، فأنا أشعر أنني سأموت حالاً.

عض مراد على شفتيه في قسوة وألم وطفرت الدموع من عينيه وهو يقول : إنني لا أفهم شيئاً أيتها الحبيبة .. لماذا تقولين ذلك ؟

همست في إعياء قاتل تقول : دعني أنظر إلى وجهك .. ليست بي قوة لأرفع عيني إليك.

مد أصابعه يرفع وجهها .. تلاقت عيونهما .. عيناه مليئة بالدموع والآلام والذهول البالغ، وعيناها تنسحب منهما الحياة رويداً رويداً .. وقد صار سوادهما الحالك صفحة بيضاء خالية من أي أسرار.

همست تقول له : إن ما حدث لي هو عقاب السماء .. لأنني لم أشكرها على كل النعم التي وهبتها لي يوم

أرسلتك إلى طريقي .. لقد فكرت في الإنتقام ممن أذوني وألموني .. كانت بداخلي نار مشتعلة لم تطفئها كل المسرات التي قدمتها لي ولذلك سعيت إلى الانتقام من ازواجي الثلاثة السابقين، فقد فشلت في أن أنسى ذلك الماضي .. ولم تكن تلك الشركة التي طلبت منك إنشاءها باسمي إلا وسيلتي للانتقام.

حملق فيها مراد ذاهلاً لا يكاد يصدق .. وواصلت كريمة حديثها ودماؤها تتدفق لتغرق ملابس مراد: لقد انتقمت منهم جميعا .. الأول والثاني أرسلتهما للسجن والثالث تسببت في حادث سيارة حطمه .. ولكن أحدهم هرب من سجنه وجاء لينتقم مني برصاصة .. لقد ظننت أن ما فعلته بأزواجي الثلاثة السابقين هو العدل الذي يستحقون عقابه على الأرض، ولكن ها هي رصاصة العدل تصيبني دون أن تخطئ طريقها .. إنني استحق تلك النهاية .. صدقني .. أستحقها لأنني لم أتسامح .. ولم أشكر السماء على كل النعم التي وهبتها لي أخيرا ..

إنني أستحق هذه النهاية لأنني لم أرحم الآخرين وأغفر لهم، فلماذا ترحمني السماء وتغفر لي ؟.

وأغمضت عينيها في وهن فغمغم مراد باكيا يقول : لا تتركيني يا كريمة .. لا تتركيني يا حبيبتي .. ليتنا ما تقابلنا يوماً لكي لا تلاقي مثل هذه النهاية.

أجابته ووجهها الذابل يستعيد شيئا من ورائه : لا تقل ذلك .. كل حياتي التي كان مقدراً أن أعيشها في تعاستي وأحزاني لو أني لم اصادفك، لم تكن تساوي لحظة واحدة من السعادة التي منحها حبك لي.

وأغمضت عينيها في ضعف قاتل، ثم فتحتها في مشقة، وهمست تسأله : هل ستكرهني يا مراد ؟

أجابها في مرارة ودموعه تسقط من وجنتيه فوق وجهها : أنا لا أستطيع أن أكرهك أبداً فأنت حبي وقدري .. لو أنك فقط اخبرتني بكل شيء في الوقت المناسب.

قالت وهي تصارع الموت: خشيت كراهيتك لي.. الموت أهون عندي. وفي ألم قاتل أكملت : أخبرتك من قبل أنك قد تندم يوما على زواجك مني فلم تستمع لي.

قال والدموع تغرق عينيه : لا يمكنني أن أندم على حبي لك أبداً .. أنا أقدّر الظروف التي دفعتك للانتقام

.. أرجوك يا كريمة .. لا تموتي .. عيشي من
.. أنا أحبك .. أحبك فلا تذهبي وتتركيني وحدي يا

حدقت فيه كريمة بنظرة أخيرة خبا ضؤوها، وبد
تتزود بنظرتها الأخيرة، وهمست بصوت خافت : اه
فارسي .. إنني لم أحب أحداً في العالم سواك فثق من ذلك.

عاد مراد يكرر نائحا : لا تتركيني يا أميرتي.

ولكن رأسها المسند فوق ركبته مال للناحية الأخرى
وتوقف القلب النازف عن النبض .. ودوت صرخة مراد
ملتاعة ثكلى ..

وجاوبته صيحة أخرى من طائر الليل الحزين. الذي
حلّق فوق المكان .. ثم انطلق سابحاً في السماء واب
الظلام !

انتقام امرأة

تأليف: مجدي صابر

تزوجت كريمة ثلاث مرات.. وفي كل مرة كان الشقاء والتعاسة ينتظرانها ليحولا حياتها إلى جحيم متصل.. حتى صارت مطلقة ثلاث مرات.. ولها من الأطفال ثلاثة..

وعندما هرع مراد لإنقاذها ذات مرة من الموت، اشتعلت شرارة الحب بينهما برغم الفارق المادي والإجتماعي الكبير.

وبعد الزواج بدأت كريمة تخطيطها للإن

وكان الإنتقام رهيباً.

دار الجيل
بيروت